

حتى بما فيه من تناقضات.

وليم جيفورد بالجريف رحلة مغامر محترف، ولد عام 1826م⁽³⁾، التحق بالفرقة الثامنة مشاة في بومباي في الهند سنة 1848م، وبعد نحو عام من التحاقه بها تحول إلى الكاثوليكية لينتظم في جماعة الآباء اليسوعيين⁽⁴⁾، وسكن في دير لها في مدينة مدراس بالهند مدة أربع سنوات، انتقل بعدها إلى روما بإيطاليا ليلتحق في سلك الكهنوت بكلية رومانو⁽⁵⁾، وجرى ترسيمه راهباً في عام 1857م، بعد أن أمضى فترة تدريب في مقر الإرسالية التبشيرية في بيروت. وبعد أن انتقل بالجريف إلى بيروت مارس العمل التنصيري وسعى هناك إلى إنشاء مدارس تنصيرية⁽⁶⁾.

في بيروت تسمى بالجريف باسم: سليم أبو محمود العيسى، واختار شاباً تعرف عليه في بلدة لبنانية اسمه جيرجيري⁽⁷⁾ مرافق له واختار له اسم: بركات الشامي، وانتحل بالجريف مهنة طبيب، وجرجيري مساعد طبيب. واتخذ بالجريف صفة تاجر أقمشة وقهوة في أحيان أخرى⁽⁸⁾. لقد طبع بالجريف زيارته هذه بالطابع العلمي متخذاً مهنة الطب وسيلة من وسائل التقرب، ولتكون مفتاح دخوله البيوت المغلقة، فالطبيب بشكل عام هو من يسمح له بالدخول إلى الداخل والكشف على الرجال والنساء على حد سواء، ولندرة الأطباء في بلاد العرب في ذلك الوقت جعلته مقرباً إلى الصفوة ودوائر صنع القرار. والتاجر كذلك يساعده بالتواصل مع النساء، فاتخذ مهنة الطبيب التاجر.

من معان في مساء يوم الاثنين 18 ذي الحجة 16/1278 يونيو 1862 انطلقت رحلته واجتاز أواسط وادي السرحان، فالجوف، فيئر شقيق، فجة، فحائل، ومنها إلى بريدة وصولاً إلى الرياض، فالأحساء والقطيف، فالبحرين، ثم البدع في قطر حتى انتهى إلى عمان⁽⁹⁾.

وأثارت رحلته جدلية الشك واليقين، ما بين مؤيد ومعارض من المستشرقين ورجال السياسة في بريطانيا المهتمين بشأن الجزيرة العربية، فخلت رحلته جديلاً منذ ليلة إلقائه محاضره عن رحلته في مقر الجمعية الملكية الجغرافية في لندن⁽¹⁰⁾. وهذه الجدلية كانت بين المهتمين من المسؤولين والمثقفين الإنجليز، ويمكن تقسيمها لمرحلتين: المرحلة الأولى: استمرت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر: منذ ليلة محاضرة بالجريف عن رحلته، تولى دفعة التشكيك مجموعة من القادة الذين عملوا في مكتب الحكومة البريطانية في الهند ومن أبرزهم أوستن هنري ليارد Austen Henry Layard 1817-1894م الذي قاد حملة نقد وتشكيك في رحلة بالجريف عبر الصحف البريطانية⁽¹¹⁾. ونشر عدد من المستشرقين البريطانيين المعاصرين لرحلة بالجريف مقالات علمية نقدية وتشكيكية بالرحلة واعتبروا ما جاء فيها نوع من الاستفزاز للعقل فهي قائمة على المغالطات والأخطاء والأوهام؛ بل اعتبر بعضهم عمل بالجريف من نسج الخيال⁽¹²⁾، وبعد المستشرق البريطاني لويس بيلي Lewis Pelly (1825-1892م). من أشد المشككين للرحلة، ويذكر بنجامين برودي سبب موقف بيلي من الرحلة كان من منطلق عداوة شخصية وغيره: بعد النجاح الكبير الذي حققه كتاب بالجريف⁽¹³⁾.

أما بالنسبة للمدافعين عن بالجريف فقد كانوا أكثر تنوعاً ومن أبرزهم المستشرقين الأخوين بول. فخلص إدوارد ستانلي بول إلى أن كتاب بالجريف جدير بأن يوضع بجانب كتاب جون لويس بوركهارت Jean Louis Burckhardt (1784-1817م)، كارستن نيبيور Carsten Niebuhr (1733-

كما ارتكز البحث على المنهج المقارن نظراً لأن بالجريف لم يذهب في رحلته بعقلية خالية، ولا شك أنه كان ملماً بأعمال من سلفه من الرحالة، وقد أهدى كتابه إلى نيبيور، ومن ثم فإن بالجريف كانت لديه تصورات وأفكار مسبقة ربما كانت صحيحة أو خاطئة، كما يجب ألا نغفل في هذا الصدد هيمنة المركزية الأوروبية كإطار فكري كانت له سطوته على أعمال معظم الكتاب والمستشرقين في القرن التاسع عشر.

ولعل الصعوبة الرئيسية في البحث تتمثل في كيفية استخلاص مكونات صورة الشخصية العربية من خلال سفر كبير كتبه بالجريف عن رحلته، ومن ثم فإن القضايا كثيراً ما تعالج في مواضع متفرقة وقد يقطعها في كثير من الأحيان سرد واستطراد في قضايا أخرى، وفرض ذلك ضرورة قراءة الكتاب قراءة متأنية إضافة إلى مقارنة ما ورد بالمصادر التاريخية الأخرى عن الشخصية العربية.

وأصدر بالجريف كتاب رحلته سنة 1865م وعنوانه: 'Narrative of A Journey Through Central and Eastern Arabia' "رحلة في وسط وشرق الجزيرة العربية". وطبع طبعات عديدة باللغة الإنجليزية، وتم ترجمته من قبل عدد من دور النشر العربية. واعتمد الباحث ترجمة الدكتور صبري محمد حسن الذي ترجم الطبعة السادسة من الكتاب، وجاءت الترجمة بعنوان: "وسط الجزيرة العربية وشرقها"، في مجلدين. نشرها المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، سنة 2011م⁽¹⁾.

2. بالجريف وعصره، الإطار النظري

علينا أن نفهم منذ البداية أن أعمال المستشرقين رغم تباينها في الأهداف والمنطلقات انتهى البعض إلى خلفية عسكرية، بينما كان آخرون ذوي مسحة دينية وغلب على فريق ثالث طابع المغامرة إلا إن الجميع انتهى بصورة أو بأخرى لإطار مرجعي واحد متمثلاً في الحضارة الغربية، أو ما أطلق عليه البعض المركزية الأوروبية، وهي تعنى ببساطة الحكم على الغير من منطلق المنظومة الحضارية الغربية على المستوى السياسي، وأيضاً على المستوى الثقافي والقيمي والأخلاقي.

وهذه مشكلة تواجه أي رحالة، يقوم برحلته حاملاً معه موازينه الخاصة بثقافته، يزن بها الثقافات الأخرى التي يبحثها، مما يصعب رحلته بانطباعات لا يرضى عنها أصحاب هذه الثقافات، والسبب هو: اختلاف المعايير، مع التسليم بحسن النوايا. فإذا لم يكن البحث العلمي المجرد هو الهدف من الرحلة، وكانت هناك أهداف شخصية أو قومية مستترة وراء الرحلة، فهذا – وإن كان يحمل في طياته بعض الإيجابيات – يخرج الرحلة من مجال البحث العلمي إلى مجالات أخرى تكثر تسمياتها⁽²⁾.

وعلياً في البداية أن نقر بأن كتب الاستشراق تُعدّ من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر، مما يجعل قراءتها ممتعة مسلية. ولكن يتعين التعامل معها بحذر مثلها مثل أي مصدر آخر، فضلاً عن ضرورة مقارنتها بمصادر أخرى.

(1) بالجريف، وليام جيفورد. ترجمة: حسن، صبري محمد. (2012). وسط الجزيرة العربية وشرقها. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

(2) الخالدي، داييل بن علي. (2014). الأحساء في رحلة وليام بالجريف (1862-1863م/1279-1280هـ). القاهرة: حوليات المؤرخ المصري، جامعة القاهرة، ص. 10.

(3) بالجريف: ذوا أصول يهودية، وكان والده فرانسيس مانير كوهين شخصية علمية مثقفة، أسهم بدور كبير في تأسيس دائرة المعارف البريطانية العامة، وبمناسبة زواج كوهين من إليزابيث تيرنر بالجريف خلع الرجل عنه اسمه اليهودي واستبدل به اسم عائلة زوجته، وتخرج ابنه وليام من أكسفورد كلية الثالوث، وكان على الإنجليز كاتبة. (البادي: عوض، الرحالة الأوروبيون في شمال وسط الجزيرة العربية: منطقة حائل، الناشر: نادي حائل الأدبي، حائل 1435/94-93هـ).

(4) جماعة الآباء اليسوعيين: من أهم الهيئات الفاعلة في الكنيسة الكاثوليكية، ومن أكبرها. تأسست على يد القديس أغناطيوس في عام 1540م في إسبانيا. وتوجد في أكثر من 100 دولة في العالم. (جودة، وائل جبار، الأعلى، طالب سلطان حمزة. (2018). فلسفة الفكر الديني لجمعية اليسوعيين (الجزء 1534-1536م. في: المؤتمر العلمي الثالث لكلية الآداب، والمؤتمر السنوي الأول لقسم الفلسفة (بالفلسفة والعلوم الإنسانية ترتقي بالوعي الديني)، كلية الآداب، جامعة بغداد، 26/04/2018، ص. 571-572).

(5) كلية رومانو: هي مدرسة أسسها القديس أغناطيوس سنة 1551م، في روما. (جودة، فلسفة الفكر الديني، ص. 577).

(6) التحق بالجريف بعد سنوات من رحلته بالعمل الدبلوماسي بوزارة الخارجية البريطانية، وشغل عدة مناصب سياسية في عدة بلدان: منها قنصل في مقاطعة شرق أناضوليا، ثم قنصل في السفارة البريطانية لدى الفلبين، وكان آخر أعماله وزيراً مفوضاً في السفارة البريطانية لدى جمهورية أوروغواي حيث توفي عام 1888م. (البادي، الرحالة الأوروبيون في شمال وسط الجزيرة العربية: منطقة حائل، 97-96).

(7) جريجوري: من أصول يونانية يعمل مديراً لإحدى المدارس في زحلة لبنان، يتكلم العربية كواحد من أبنائها، وقد ترك بالجريف في الخليج ورجع إلى وطنه ليصبح قسيساً ثم بطريركاً للأرثوذكس الشرقيين. (بدول، روبن. ترجمة: نصيف، عبدالله آدم. (1989). الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية. الرياض: مطابع جامعة الملك سعود، ص. 69-74).

(8) حمل بالجريف ما يقارب خمسين صندوقاً مليئاً بالأدوية الطبية والشعبية، وكعبة من الأقمشة، والبن، والتغ، والغلابين، والحلي الزجاجية. (بالجريف، وسط الجزيرة العربية وشرقها، 22/1).

(9) حول خط سير الرحلة انظر:

Palgrave, W.G. (1864). Observations made in central, eastern, and southern Arabia during a journey through that country in 1862 and 1863. The Journal of the Royal Geographical Society of London, 34(n/a), 111–154. <https://doi.org/10.2307/1798469>, p.112.

(10) الجمعية الجغرافية الملكية في لندن: هي جمعية علمية أُنشئت في لندن عام 1830م، مكونة من المهتمين بالاستكشاف، والدراسات الجغرافية، وعلق رئيس الجمعية بعد المحاضرة بقوله: (أنهم استمتعوا في لياليم تلك بقصة ليلة جديدة تضاف إلى قصص ألف ليلة وليلة لتصبح ألف ليلة وليلتين). (إبراهيم، عبدالعزيز عبدالغني. (2013). روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية. بيروت: دار الساق، 118/2).

(11) برودي، بنجامين. قدم له وحرره: آل زلفه، محمد عبدالله. (2012). بالجريف ونقاده أصول الجدل ومضامينه. الرياض: دار بلاد العرب، ص. 16.

(12) من قائمة المنتقدين لرحلة بالجريف من معاصريه: المستشرق البريطاني ماكينل وجورج برسي بادجر. (برودي، بالجريف ونقاده، ص. 75-76).

(13) برودي، بالجريف ونقاده، ص. 57.

1815م⁽¹⁾.بالكلمة على حساب المعنى على حد رأي هوجارت⁽¹⁵⁾.

وأدلى المستشرقون الغربيون في أوروبا وأمريكا بدلوهم في ذلك الجدل، فاعتبر المستشرق الأمريكي زويمر كتاب بالجريف مرجع أصيل متفرد فيما يخص نجد والأحساء⁽¹⁶⁾. ويرى المستشرق الأمريكي بايارد تايلور Bayard Taylor (1825-1878) إن مؤهلات بالجريف في تحمل المسؤولية تفوق في بعض جوانبها مؤهلات على بوركهارت، وريتشارد فرانسيس بورتون Richard Francis Burton (1821-1890م)، بجانب الثقافة العامة الرفيعة المستوى والأسلوب القوي والتصويري لبالجريف⁽¹⁷⁾.

كما أن العديد من الرحالة الغربيين الذين زاروا الجزيرة العربية بعد زيارة بالجريف كشفوا عن كثير من الأخطاء التي وردت في كتاب بالجريف، ولكنهم لم يشكوكوا صراحة في قيامه بالرحلة⁽¹⁸⁾، مثل المستشرق البريطاني ولفرد سكاون بلنت Wilfrid Scawen Blunt (1840-1922م) الذي ارتأى أن ما كتبه بالجريف عن الخيل في نجد يتجاوز الحقيقة، ولكنه رغم ذلك لم يشك لحظة في صحة رحلة بالجريف؛ بل كان في مقالته عن رحلته لحائل يحول القارئ لكتاب بالجريف لأنه أفضل من وصف الحياة الاجتماعية فيها⁽¹⁹⁾.

وانتقلت حتى تلك الجدلية إلى المؤرخين العرب المهتمين والمختصين بكتابات الاستشراق فنجدهم ينقسمون ما بين شكك وبين متيقن من صحة الرحلة. ومن أبرز من شكك، بل نفى قيامه بالرحلة هم: "محمد جلال كشك"⁽²⁰⁾، وعبدالعزير عبدالغني إبراهيم⁽²¹⁾، وأبو عبدالرحمن عقيل الظاهري⁽²²⁾، وعدنان السيد العوامي⁽²³⁾. أما المتيقنين من صحة الرحلة، رغم الملاحظات والمآخذ على الرحلة، فكان على رأسهم: "عبدالفتاح أبو عليه"⁽²⁴⁾، ومحمد آل زلفه⁽²⁵⁾، وعبدالله العسكر⁽²⁶⁾.

في الحقيقة إن الأعمال المميزة هي في الغالب تترك أثراً، وتصنع الجدل ما بين معجب وكاره، وعمل بالجريف يعد عملاً مميّزاً باقتدار، مع وجود ملاحظات وماخذ لا يمكن تجاوزها، وهذا من طبيعة أعمال البشر.

وعمل بالجريف يدل على أنه مثقف وموسوعي، والموسوعية التي يتميز بها في تفكيره وتعبيره، وربطه للأحداث. والبعد التاريخي كان حاضراً؛ لكونه دافعاً رئيساً للكتابة عن العرب، وتاريخهم الاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي. ويسجل لبالجريف أنه قام بأول رحلة يقوم بها أجنبي تبدأ من أقصى نقطة في شمال المملكة (وادي السرحان)، وتنتهي في أقصى نقطة في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية حيث عمان. والكتاب سرد لرحلة المستشرق مبنية على خبرات أسفاره وتجوّاله المتعدد، ولقاءاته، بأسلوب جيد وجاذب، وفيه تحليلات جيدة وفق فيها وبعضها على العكس تماماً⁽²⁷⁾.

كان شاهد عيان لأحداث وقعت وتكلم عنها بتفصيل: مثل قضية قافلة حجاج المشرك الإسلامي: حيث تعرض قافلة لحجاج المشرك الإسلامي بالقرب من بريدة في القصيم للهجوم والسلب، وموقف الرياض من تلك الحادثة، فكان أول مصدر تكلم عن تلك الحادثة⁽²⁸⁾. وقد تتبع الباحث تلك

أما برترام توماس Bertram Thoma (1893-1950) اعتبر بالجريف من أميز الذين كتبوا في أدب الرحلة الغربية⁽²⁾. وقد كتب السيد روزاريو -العميل البريطاني في مسقط- رسالة إلى لويس بيبي عن مقابلته بالجريف في مسقط⁽³⁾.

وأكد أبو عيسى الخالدي⁽⁴⁾ في رسالة أرسلها إلى لويس بيبي كذلك عن مرافقته بالجريف من بريدة وحتى الأحساء والبحرين⁽⁵⁾.

بعد شهادة روزاريو وأبو عيسى توقف نقاد بالجريف عن حدة النقد والتشكيك بصحة الرحلة، واكتفوا فقط بالملاحظات النقدية على رحلته حتى العقد الثاني من القرن العشرين، لتبدأ المرحلة الثانية من جدلية الشك واليقين حول رحلة بالجريف في أوساط القيادات البريطانية الاستعمارية من خلال مكاتبتها بالشرق. فتبنى مكتب الهند البريطاني جدلية الشك في صحة الرحلة، وقاد هذه الحملة المستشرق البريطاني هاري سانت فيلبي، Harry St. Philby بدأت عام 1919م واستمرت إلى وفاته 1958م. فقد ألقى عدداً من المحاضرات في الجمعية الجغرافية الملكية انتقد فيها بالجريف وشكك في عدم صحة رحلته لكل المناطق التي ذكرها في رحلته، ففي محاضراته عام 1919 انتقد فيها كتابة بالجريف عن جنوب نجد⁽⁶⁾. والنقد الثاني كان في محاضراته عام 1920م، انتقد المعلومات برحلة بالجريف عن وصفه لصحراء الدهناء وشكك بمصداقية وصفه، وتحدى مؤيدي بالجريف الرد عليه⁽⁷⁾. أما النقد الثالث في عام 1948م فقد أكد فيلبي عدم صحة وصفه لأماكن عديدة في الرحلة ولا تقف مع واقع حال تلك الأماكن وأن بالجريف استقاها من خياله، وأصبح فيلبي متيقناً من أن بالجريف لم تطأ قدمه الجزيرة العربية أو من الممكن أنه استقاها من بعض تجار الجزيرة العربية الذين يتعاملون مع أسواق دمشق⁽⁸⁾. وقد وصفه بالمتحامل⁽⁹⁾. فيقول: (بأنني مقتنع جدا بأن بالجريف لم يشاهد الخرج والأفلاج ولم يصل إلى الرياض أو القصيم. وإذا كان قد وصل إلى حائل فإن هذه أبعد ما يمكن أن يكون قد وصلها بالجزيرة العربية، وحتى هذه، فإني على قناعة بأنه لم يصل إليها. وقصته الذكية الخيالية أسرت لب العالم، ولكنها في رأبي لا تعدو كونها "قصة رحلة"⁽¹⁰⁾).

وعلى النقيض من مكتب الهند كان المكتب العربي بالقاهرة⁽¹¹⁾ قد تبني بعض قاداته صحة الرحلة ودافعوا عنها، وأبرزهم كان المستشرق البريطاني دافيد جورج هوجارت David George Hogarth 1862-1927م⁽¹²⁾. وقام بالرد على انتقادات فيلبي بمحاضراته الأولى التي ألقاها في الجمعية الملكية الجغرافية البريطانية⁽¹³⁾. واعتبر عمل بالجريف أفضل مصدر لديه وخاصة وسط وجنوبي نجد ويعده شاهد العيان الأول والوحيد عن تلك المنطقة⁽¹⁴⁾. ويؤكد هوجارت أن أفضل من أجاد وصفها هو الرحالة بالجريف، الذي تميز بوصفه للحياة الاجتماعية عن الرحالة جورج أوغست فالين الذي كانت الحياة الاجتماعية هامشية في كتاباته، كما فاقت في جمالها أوصاف الرحالة البريطاني تشارلز دوتي Charles Doughty (1821-1926م) الذي كان يتكلف

(20) كشك، محمد جلال. (1984). السعوديون والحل الإسلامي: مصدر الشرعية للنظام السعودي. ط4. القاهرة: المطبعة الفنية، ص209.
(21) إبراهيم، روايات غربية، 117/2.
(22) الظاهري، أبو عبدالرحمن بن عقيل. (1994). مسائل من تاريخ الجزيرة العربية. ط4. الرياض: مؤسسة دار الأضالة، ص212-196.
(23) العوامي، عدنان السيد. (2011). ترجمة رحلة بالجريف: ترجمة تحتاج إلى ترجمة. مجلة الواحة الإلكترونية، 16(53). بدون أرقام صفحات. <http://www.alwahamag.com>
(24) أبو عليه، عبدالفتاح حسن. (1999). تاريخ الدولة السعودية الثانية 1256-1309هـ/1840-1891م، ط6، الرياض: دار المريخ، ص138.
(25) آل زلفه، محمد بن عبدالله. (2014). حائل في كتاب الرحلة ولبليام بالجريف عام 1279-1862م، ط2. الرياض: دار بلاد العرب، ص12.
(26) العسكر، عبدالله. (2002). رحلة بالجريف معربة. جريدة الرياض، بدون رقم مجلد(12385). بدون أرقام صفحات، والعسكر، عبدالله. (2002ب). رحلة بالجريف معربة. بدون رقم مجلد(12399). بدون أرقام صفحات.
(27) تتضمن الكتاب حوادث ومعلومات وقضايا لا توجد في غيره فهو المصدر الأول لها، وأمور أخرى في غيره لكنه فصلها وأوضحها، ومن ذلك: إمارة آل الرشيد ولبلاط الأمير طلال، ورسم خريطة مدينة حائل، وضم إمارة آل رشيد الجوف، والأمير حمود العقلا وطريقة حكمه الجوف، وقصر برزان وطريقة الحكم والحرس الخاص بالأمير والمدينة، والمشاهدة في حائل، وشرايح المجتمع في حائل، وبلدة قيد وطريقة إدارتها والزراعة فيها، حديثه عن مدينة الرياض وأحيائها، العيون والأسواق والمجتمع الإحساني، ومجتمع البحرين (رحلة بالجريف، 66/2-230). وقطر وحكامها وقبائلها واقتصادهم (رحلة بالجريف، 270/2-277). وعمان ومجتمعها واقتصادها وعمارها (رحلة بالجريف، 300/2-360). بجانب معلومات جدا مهمة عن مجتمع ساحل الخليج العربي الشرقي التي وهو ما أسماه بالجريف: بر فارس، حيث تحدث عن سكانه العرب، وحكامه (رحلة بالجريف، 285/2-287).
(28) تعرضت قافلة الحج الأيراني بعد عودتها من مكة لمتاعب كثيرة في القصيم بسبب تخلي أباطين المكلف بامرة حياهم من قبل الإمام فيصل بن تركي وانحياز إلى متمردى عنيزة وعدم قدرة الأمير مهنا أمير بريدة على حل

(1) برودي، بالجريف ونقاده، ص78.
(2) إبراهيم، روايات غربية، 116/2.
(3) برودي، بالجريف ونقاده، ص104.
(4) أبو عيسى الخالدي: أصله من حلب وانتقل للاستقرار في الأحساء والعمل كمرشد لقاوفا الحج الفرس القادمين عبر شرفي الجزيرة العربية. (تايلور، بايارد. ترجمة: جزائري، رنا. تحرير وتعليق: إيش، أحمد. 2012). الترحال في وسط الجزيرة العربية. أبو ظبي: دار الكتب الوطنية، ص188.
(5) برودي، بالجريف ونقاده، ص104.
(6) فيلبي، هاري سانت جون. ترجمة: حسن، صبري محمد. مراجعة: عباس، رؤوف. (2009). قلب الجزيرة العربية سجل الأسفار والاستكشاف، ط2. القاهرة: المركز القومي للترجمة، 142/2.
(7) فيلبي، قلب الجزيرة العربية، 143/2.
(8) فيلبي، قلب الجزيرة العربية، 143/2؛ برودي، بالجريف ونقاده، ص39-38.
(9) برودي، بالجريف ونقاده، ص88.
(10) فيلبي، هاري سانت جون. ترجمة: أحمد، عباس سيد. (2002). أيام عربية. الرياض: مكتبة العبيكان، ص274.
(11) المكتب العربي: هو أحد أقسام المخابرات البريطانية في القاهرة أنشئ سنة 1916 وأغلق سنة 1920.
(12) هوجارت، دافيد جورج. ترجمة: إيش، أحمد. (2009). ارتياد جزيرة العرب سيرة كشف رحالة الغرب ومغامراتهم في أرض الجزيرة. هيئة أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ص428؛ برودي، بالجريف ونقاده، ص39-38.
(13) فيلبي، قلب الجزيرة العربية، 142/2.
(14) هوجارت، ارتياد جزيرة العرب، ص428؛ برودي، بالجريف ونقاده، ص39-38.
(15) هوجارت، ارتياد جزيرة العرب، ص414-413.
(16) إبراهيم، روايات غربية، 117/2.
(17) تايلور، الترحال في وسط الجزيرة العربية، ص91.
(18) تايلور، الترحال في وسط الجزيرة العربية، ص91.
(19) Blunt, W.S. (1880). A Visit to Jebel Shammar (Nejd). New Routes Through Northern and Central Arabia. In: Proceedings of the Royal Geographical Society and Monthly Record of Geography, 2(2), 81–102. <https://doi.org/10.2307/1800398>, p.88.

أل رشيد والجريف، شرح للأخير باختصار أسباب رحلته، وهدفها وما المأمول من طلال والأمل الذي حدا به للمجيء إلى بلاد العرب، واستغرق الاجتماع مدة ساعة كاملة. واختتم فيه طلال الاجتماع بالتأكيد على السرية والتكتم المطلق قائلًا: (إذا ما عرف الأمر الذي تباحثنا فيه الآن، أصبحت حياتكم وحياتي في خطر)⁽¹⁵⁾.

وبعد عودته كتب بالجريف تقريراً لا زال حبيس أدراج أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، عن المنطقة العربية مصر وسوريا والجزيرة العربية كما يقول سمير عطا الله⁽¹⁶⁾.

فمن المحتمل إن من أهداف الرحلة القيام بمهمة تجسسية استطلاعية لصالح الفرنسيين، وليست أفكاراً أو مشروعات فرنسية. وأكد على أنه كان يستطلع رأي أمراء آل رشيد، في مدى ترحيبهم بأي نوع من التعاون أو الحماية الفرنسية دون إذن الفرنسيين وعرض حال عودته نتائج رحلته على الإمبراطور الفرنسي الذي لم يعترض على ما ورد فيها، ومنحته الجمعية الجغرافية الفرنسية وسامها⁽¹⁷⁾.

ويتضح لنا من خلال التعرف على أهدافه شيئين: أولهما: الموسوعية التي يتميز بها في تفكيره وتعبيره. وثانيهما: فخره بتبنيه جميع الأهداف السابقة.

وعن منهج بالجريف في كتابته ذكر أنه: (يسعى ليسد الفراغ في الجوانب الذي أهمله كل من الرحالة أوغست والين والكابتن ولستد اللذين كانت أبحاثهما في الأساس قد ركزت على الطوبوغرافيا وأن بحثه سيركز على الظروف السكانية في بلاد العرب)⁽¹⁸⁾. وقد استخدم -كعادة معاصريه- أسلوب الرواية، فعرض الأحداث في تسلسلها الزمني الطبيعي مستخدماً ضمير المتكلم، وأدار مع قارئه حواراً حياً غذاه بالتأملات والاستنتاجات الواردة وشاردة، وأفاض في وصف بعض الأماكن والأحداث لدرجة يشعر معها القارئ بأنه قد صاحب الرحالة في رحلته⁽¹⁹⁾.

فيذا العمل أعد بطريقة وأسلوب جديدين، فهو ليس على غرار كتب أدب الرحلات؛ بل هو أكثر من ذلك، فهو يحوي علوماً ومعرفاً وثقافات، وهو كتاب نظر وفكر، وهو كتاب سياسة واجتماع، وكتاب أرض وناس، وكتاب دين وتقد. فصاحبنا رجلٌ موسوعي، ومنهجه يزج مجموعة من الباحثين والقراء؛ ويمكن إزعاجهم هو الاستطراد في طرحه لمشاهداته، وهو ما اعتبره البعض بأنه نوع من استعراض العضلات العلمية، وأحياناً الشخصية، فاستخراج المعلومة من بين أسطر كتابه، يحتاج إلى التركيز والشمولية وهنا ممكن الانزعاج لدى البعض⁽²⁰⁾.

أما مصدوره في كتابة رحلته، ذكر أنه رجع إلى مصادر مختلفة منها: مصادر: دينية، وأدبية وتاريخية وفلسفية، وكتابات الرحالة الغربيين، وعلى الروايات المحلية في البلدات التي زارها، بجانب المشاهدة والسمع والوصف، والذاكرة⁽²¹⁾.

3. وصف المجتمع العربي

وصف بالجريف الحياة اليومية للمجتمعات التي زارها، مثل الجوف، وجبل شمر، والرياض، والأحساء، والقطيع، وأن ما قدمه بالجريف من وصف لحياة يوم كامل لمجتمع المدن التي زارها كانت له الأولوية حيث تميز فيه على

القضية في الوثائق المحلية السعودية، والمصادر الفارسية. وقد وجد الباحث في الوثائق الفارسية ما يؤكد على تلك الحادثة⁽¹⁾.

كما إن هناك إشارات لموضوعات دون حديث مسبق أو تعريف بها لم يشر لها أحد قبل بالجريف مثل مشروع عباس باشا! ومن يقرأه للوهلة الأولى يعتبره تهويماً، وقد قام الباحث بتتبع بعض الأحداث التي أشار لها في رحلته للتأكد من صحتها ومن عدمها. وبعد قراءات وبحث وجد الباحث مشروع عباس باشا قد أشار له الرحالة الفرنسي شارل ديدييه في أثناء مروره بقصر لم يكتمل لعباس باشا في سينا⁽²⁾. ودون توضيح أيضاً من قبل شارل ديدييه. ولهم الموضوع يحتاج الاطلاع والربط والمقارنة بين ما كتبه بالجريف وبين ما كتبه ديدييه⁽³⁾.

حدد بالجريف أهداف رحلته في ثنايا مقدمته لكتابه وهي على النحو التالي:

- **أهداف دينية:** بين أن هدفه من الرحلة كان دينياً خاصة بعد قراءته لكتاب يتحدث عن عنزة بن شداد، فتأقت نفسه لنشر المسيحية في بلاد عنزة، وأيضاً تحقيق أهداف الجمعية اليسوعية التي ينتهي إليها، والتي اشتهرت بحوليات التاريخ التي تستهدف في أعمالها: "حب البشر والناس"⁽⁴⁾. والمطلع لرحلة بالجريف يجد اهتمامه بالعامل الديني من خلال استطراداته في ثنايا كتابه عن الفكر الديني العربي، ومنظور العربي للدين⁽⁵⁾، كل تلك الاستطرادات تدل على اهتمامه بالعامل الديني في رحلته. ولا ننسى أن رحلته تم دعمها من قبل البابا لوجستيا ومنحه التشجيع المعنوي⁽⁶⁾. وسافر بالجريف إلى روما وتلقى من البابا المباركة المعتادة والطقوس التي تقام للبعثات التي تخرج للتصنيف⁽⁷⁾.

- **دراسة العرق العربي:** ومن الأهداف التي صرح بها في كتابه كان دراسة مجتمع عرب الجزيرة، وهو ما أطلق عليه كهدف دراسة العرق العربي، فقد كان اهتمامه منصباً على إعطاء فكرة صحيحة عن حالة العرق العربي: (الفكرية والسياسية والاجتماعية والدينية). ويؤكد أنه لو وفق في تحقيق هذا الهدف: (فلن أتطلع إلى أكثر منه)⁽⁸⁾. وبين بالجريف أن التعرف على عرب الجزيرة سيساعد المجتمعات الغربية على فهم أكثر شعوب الشرق⁽⁹⁾.

- **أهداف سياسية واستعمارية:** من أهداف رحلته التي ذكرها في كتابه كان هدفاً سياسياً بقوله بحدوده الأمل في: (تحريك المياه الشرقية الراكدة حتى تلحق بأهمار التقدم الأوربي الجارية وتتصل بها)⁽¹⁰⁾. ومن الطبيعي أن ذلك لا يكون -من وجهة نظره- إلا لسيطرة أو نفوذ أوربي على هذه المنطقة لانتشارها من الجهل إلى المعرفة ومن التخلف إلى التقدم⁽¹¹⁾. ويظهر النفس الاستعماري في الرحلة من خلال رؤية بالجريف التي عبر عنها بقوله: (ومن الأهمية بمكان أن تكون لدينا فكرة صحيحة عن الشعوب والأمم التي يغلب على الظروف أن تجعلنا أكثر اتصالاً بها، وكذلك الشعوب التي يحتمل أن تكون نحن في المستقبل متحكمين بفضل العناية الإلهية في كثير من أمورها المستقبلية)⁽¹²⁾.

- **الرغبة بالاستكشاف والملاحظة:** وفي موقع آخر من كتابه يوضح هدفه من الرحلة وهو رغبته في الاستكشاف والملاحظة التي تملأ قلوب الإنجليز⁽¹³⁾.

- **مهمة تجسسية استطلاعية لصالح فرنسا:** إن عملية التقاء نابليون الثالث مع الرحالة بالجريف تمت في ظروف غامضة ولا نعرف على وجه التحديد التكليف الذي جاء به إلى الجزيرة العربية وكل ما هنالك أنه صار يعمل لحساب البلاط الفرنسي. وتلقى بالجريف مبلغ عشرة آلاف فرنك من نابليون لتمويل نفقات الرحلة. أضاف إليها اليسوعيون في لبنان مبلغاً آخر⁽¹⁴⁾. وبعد وصوله حائل تم الاجتماع السري الذي انعقد في فجر 25 صفر 1279هـ/21 أغسطس 1862 م، بين الأمير طلال ابن رشيد حاكم إمارة

مشاكلهم، بل كان أحد صانعي المشاكل لهم على حد تعبير بالجريف، فعزم النائب أو السفير الإيراني على الذهاب إلى الرياض للتباحث مع الإمام فيصل حول ما تعرض له الحجاج الإيرانيون، وكان من ضمن القافلة المرافقة للركب الإيراني الأديرة الهندية المشهورة تاج جيان. (رحلة بالجريف، 132/2).

(1) وزارة الشؤون الخارجية، (1862). سند نمرة 596. أرشيف وزارة الشؤون الخارجية الإيرانية، طهران.

(2) عن مشروع عباس وبناء قصر كبير في جبل سينا وهدفه. شارل، ديدييه، ترجمة: البقاعي، محمد خير.

(3) رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر شريف مكة المكرمة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي 1854 م، ط2، بيروت: الدار العربية، ص71-72.

(4) لهم طبيعة تلك الأحداث انظر: الشمري، خليف، (2016). طلال بن عبدالله آل رشيد 1238-1283هـ/1822-1867 م قراءة موسوسو-تاريخية، بيروت: جداول، ص390-391.

(5) رحلة بالجريف، 10/1.

(6) عطا الله، سمير، (1998). قافلة البحر الرحالة الغربيون إلى الجزيرة العربية (1762-1950). ط2، بيروت: دار

الساقي، ص75.

(7) إبراهيم، روايات غربية، 107/2.

(8) رحلة بالجريف، 1/1.

(9) رحلة بالجريف، 1/1.

(10) رحلة بالجريف، 10/1.

(11) رحلة بالجريف، 10/1.

(12) رحلة بالجريف، 10/1.

(13) رحلة بالجريف، 10/1.

(14) إبراهيم، روايات غربية، 107/2.

(15) رحلة بالجريف، 1/239-238/1. في وداع بالجريف ومر افقه الأمير طلال بن عبدالله -أمير إمارة آل رشيد- في حائل

قال لهما: (قد يكون من الجماعة أن تظلبا مني أن أعطيكما رداً رسمياً ومعتمداً على أمور من هذا القبيل في ظل

الطرف الراحة، ولكني -أنا طلال- أزيد على ذلك: عليكم أن تتكادا من الآن ودوماً من نبي الحسنه ومقاصدي

الطبية، ويجب عليكما أن تواصلا رحلتكما، ولكن عودا بأي شكل تريانه.) وأبدى استعداداً لتنفيذ ما يريدانه،

وأوصاهما بالحرص والحذر في العاصمة السعودية، وطلب منهما الاستعداد للرحيل بما يقبضه الأمر، مع وفد سيغادر

إلى القصيم. (رحلة بالجريف، 250/1).

(16) عطا الله، قافلة البحر الرحالة الغربيون إلى الجزيرة العربية، ص75.

(17) بيرين، جاكين. ترجمة: قلعي، قدري، (د.ت). اكتشاف جزيرة العرب خمسة قرون من المغامرة والعلم، بيروت:

دار الكتاب العربي، ص303؛ السندي، صالح بن محمد (2009). القصيم في رحلة وليم بالجريف (1279هـ/1862م)

"عرض ودراسة" الرياض: الجمعية التاريخية السعودية، ص465.

(18) رحلة بالجريف، 10/1.

(19) الغالدي، الأحساء في رحلة وليم بالجريف، ص14.

(20) المسكر، عبدالله، (2002). رحلة بالجريف معربة. جريدة الرياض، بدون رقم مجلد (12385)، بدون أرقام

صفحات، والمسكر، عبدالله، (2002). رحلة بالجريف معربة. جريدة الرياض، بدون رقم مجلد (12399)، بدون

أرقام صفحات.

(21) أشار بالجريف في صفحات مختلفة في كتاب رحلته للمصادر التي استفاد منها. (رحلة بالجريف، 1/14-12-24-

تماماً، له شعر طويل أسود، عينان سوداوان ثاقبتان، ووجه ينم عن الصرامة أكثر من الانبساط والوضوح⁽¹²⁾.

وكتب بتفصيل عن حسن السياسة وسداد الرأي والعزم لديه، ويُن أن كان مهتماً بمعرفة أخبار العالم ومتابعة التطورات المحيطة والأوضاع الخارجية والمشكلات السياسية التي تدور في البلاد العربية والإسلامية وأوربا. وهذا ما مكنته في معرفة الطرق السياسية ومفاتيحها، فحقق عدد من المكاسب السياسية والاقتصادية. وعن فن الحكم لدى طلال يقول: (إنني لم أر مثيلاً لفن الحكم عند طلال بن عبدالله بن الرشيد، بين جميع الملوك أو الحكام، الأوربيين أو الآسيويين الذين تشرفت بمعرفتهم)⁽¹³⁾. وفي مكان آخر يقول: (إن إدارة طلال وحكومته تتفوق تماماً على الإدارة العثمانية، ولكنها لا تصل إلى مرتبة الإدارة الإنجليزية والروسية)⁽¹⁴⁾.

بالنسبة للمرأة لم يأت ذكرها في رحلة بالجريف إلا نادراً، حتى في عيادته بمنزله والتي ارتادها الكثيرون لم نجد أي ذكر لأي امرأة زارته في عيادته؛ وسبب ذلك أنه قرر في حائل عدم ممارسة مهنة الطب مع السيدات والأطفال الصغار⁽¹⁵⁾. لكن نجد إشارات للمرأة في القصيم والأحساء في رحلته، فقد أتت على المرأة القصيمية التي حظيت باهتمامه في القصيم، وذكر أنّها لا تقل مكانةً عن الرجل، خاصة في مجال البيع والشراء، حيث كانت تحتل سوق الخضار والفواكه ودكاكين البقالة والتوابل، لدرجة قوله: (إن الجنس اللطيف في بريدة لا يقل مهارةً في التجارة والاتجار عن الجنس الخشن)⁽¹⁶⁾.

ومع أن مسألة الاختلاط مرفوضة كعرف اجتماعي، كما يرى بالجريف⁽¹⁷⁾ إلا أن الحجاب الذي ترتديه النساء في نجد، لا يُعد التزاماً متشدداً كما هو الحال في سوريا ومصر، فهو مسألة تقليد وعرف يمكن التخلص منها عندما يتطلب الأمر ذلك⁽¹⁸⁾. وقد أشار بالجريف إلى امرأتين كانتا برفقتهم في الرحلة من حائل إلى بريدة، قائلاً: (وكانت المرأتان ملفوفتين من قمة رأسهما إلى أخمص أقدامهما، في ثياب داكنة الزرقاء.. ولم يكن أحد يتكلم إليهما، ولم تكونا بطبيعة الحال تتكلمان إلى أحد)⁽¹⁹⁾.

وعن نساء الأحساء فيحدثنا بالجريف عنهن بأنهن أقل تشدداً في لبس الحجاب عن نظيرتهن في نجد، وأن القيود المفروضة على النساء في الأحساء أخف من تلك التي في نجد⁽²⁰⁾. وأثنى على المرأة الأحسانية وتميزها بالجمال والرشاقة وعنها يقول بأنها: تتمتع بنصيب وافر من الجمال الطبيعي دون الحاجة إلى مركبات أو مستحضرات التجميل⁽²¹⁾.

وقام بالجريف بتصنيف الجمال عند نساء البلدان التي زارها، فصنف جمال العمانية بالدرجة الأولى ثم القطرية، فالأحسانية، فالنجدية، فالشمرية فالجوفية. وأقل درجات الجمال من وجهة نظرة كانت البدوية. واستثنى الحجازية واليمينية لعدم زيارته تلك البلدان⁽²²⁾.

ومن الشرائح الاجتماعية في جزيرة العرب التي كان لها نصيب في رحلة بالجريف كانت شريحة المماليك، فعنهم يقول: (صادفنا أحياناً في الجزيرة العربية زوجاً، في الجوف وجبل شمر والقصيم وسدير، ولكننا رأيناهم فقط يؤدون أدواراً للعبيد، ونادراً ما صادفناهم في منازل غير منازل أكثر الناس ثروة)⁽²³⁾. ويقول إن عدد العبيد والمولدين في جنوب نجد كان في ازدياد، وكانوا في بعض الواحات يشكلون أغلبية السكان: (ويوجد في الرياض كثير من الزوج، وعددهم أكثر في منفوحة والسلمية وغالباً ما نصادفهم في الخرج ووادي الدواسر)⁽²⁴⁾.

ومن خلال ما جاء في مشاهدات بالجريف يتضح أن المماليك كانوا من ذوي

من سبقه من الرحالة مثل والين والذي كانت الحياة الاجتماعية هامشية في كتاباته⁽¹⁾. كذلك لا يستطع أن يصفها بتلك الدقة سواء، ونجد ذلك على سبيل التوضيح عند عدد من الرحالة الذين زاروا المنطقة بعده، لدرجة إن هناك من ينقل حرفياً من رحلة بالجريف دون الإشارة إليه في بعض مشاهداتهم التي وقفوا عليها أو حتى عند وصفهم لبعض الشخصيات، ونجد ذلك بشكل واضح عند دوتي، والليدي أن بلانت⁽²⁾. ويرى هوجارث بأن وصف بالجريف فاق في جماله أوصاف الرحالة دوتي الذي كان يتكلف بالكلمة على حساب المعنى⁽³⁾. ويفسر لنا سبب تفوق بالجريف بقوله: (فيقدم انطباعاً نموذجياً عن الوقائع، وعن العادات، ويروي فحوى الأحاديث التي سمعها، حيث مكنته تعاطفه الحميم مع حياة البلدات الشرقية، وإجادته للعربية العامية، من مشاركتهم دقائق حياتهم، كما لم يشاركهم أي واحد من رحالي جزيرة العرب)⁽⁴⁾.

على العموم نقل لنا بالجريف صورة حية بالتفصيل الدقيق عن المجتمعات التي زارها مثل مجتمع جبل شمر، فيه تقسيم الأوقات لسيرة يوم كامل له وهو اليوم العاشر من أغسطس 1862م، وهو نموذج لبقية الأيام التي قضاها في مدينة حائل ويعتبر هو نفس الأيام على طول السنة⁽⁵⁾. ونفس هذه الصورة نجدها في الرياض، والأحساء⁽⁶⁾.

وخلال حديث بالجريف عن الحياة اليومية للمجتمعات التي زارها قدم مادة علمية عن شرائح المجتمع من الأفراد، ومن التجار، والمتقنين، وأصحاب الحرف، والموظفين الحكوميين، والمرأة، والطفل وعن شرائح المجتمع التي قابلها مثل الأسر الحاكمة، وشريحة المماليك وغيرهم. كما تميز بالجريف بالتركيز على شخصيات ثانوية حيث لم يكن لها نصيب معلوماتي في كتب الرحلات أو غيرها. وتميزت تلك المشاهدات بالدقة، وسوف نأخذ نماذج بشكل مبسط من بعض تلك المشاهدات الاجتماعية.

ومن تلك الشخصيات، شخصية عبدالمحسن آل بوعليان: الذي قابلته في مدينة حائل⁽⁷⁾، وعده أفضل شخصية عربية ثقافية وفكرية مرت عليه في بلاد الشرق. فنعتته بصفات الإطراء والثناء بقوله عنه: (هو الصديق الحميم للأمر، والرفيق الذي لا يفارقه مطلقاً، ومظهره يدل على مخبره، إذ كان يُوحى بالثقة والألفة من أول نظرة، رجل خمسيني أشقر، وعينه واسعتان تشعان ذكاءً، أنيق المظهر، كريم محب للنكتة، يبدو كما لو كان من الشخصيات العلمية والأدبية في الحاشية، وربما كان مؤلفاً)⁽⁸⁾. وعن سبب قدومه لحائل يقول: (وقد لجأ إلى حائل بعد مطاردات لاحقته في موطنه منذ عشر سنوات، وعاش في قصر أمير حائل أولاً ضيفاً ثم صديقاً مقرباً، مرحباً به في لحظات الاسترخاء، بسبب مرحه وأناقته الطبيعية، ومعرفته الواسعة بتاريخ العرب ونواديرهم، ولكن تتجلى قيمته في الأوقات العصيبة لرأيه الحكيم، ونصائحته المتسمة بالدهاء)⁽⁹⁾.

ومن تلك الشخصيات التي تناولها رئيس التشريرات في قصر الحكم في حائل⁽¹⁰⁾ ويسمى سيف: فوصفه بقوله: (شخص نحيف متوسط الحجم تغلو وجهه ابتسامة توحى أنه من رجال الإتيكيت..) وعن ملابسه يقول: (ملابس ذلك الشخص أنيقة وبسيطة وكذلك العصا المحلقة بحلقات من الفضة، التي يمسكها في يده، وأداؤه للتحية أداء محترماً وأسلوبه الذي يوحى بالأدب.. ذلك الشخص هو سيف كبير ياوران القصر)⁽¹¹⁾.

وقابل بالجريف عدداً من الحكام العرب وكان رأيه مختلف ومتناقض بين الحكام العرب والأمراء العرب وتأخذ الأمير طلال بن عبدالله آل رشيد نموذجاً وقد اعتبره بالجريف نموذج لما يجب أن يكون عليه الأمير العربي فوصفه بقوله: (قصر القامة، عريض المنكبين، قوي البنية، داكن البشرة

(12) رحلة بالجريف، 1/318.

(13) رحلة بالجريف، 1/159.

(14) رحلة بالجريف، 1/175.

(15) رحلة بالجريف، 1/177.

(16) رحلة بالجريف، 1/348.

(17) رحلة بالجريف، 1/315.

(18) رحلة بالجريف، 1/316.

(19) رحلة بالجريف، 1/277.

(20) رحلة بالجريف، 2/201.

(21) رحلة بالجريف، 2/205.

(22) رحلة بالجريف، 2/205.

(23) رحلة بالجريف، 2/201.

(24) رحلة بالجريف، 2/201.

(1) هوجارث، ارتياد جزيرة العرب، ص 413-414.

(2) انظر على سبيل المثال لحديث دوتي أو بلنت في موضوعات المتعلقة بوصف شخصية الأمير محمد بن رشيد ووصف بالجريف لشخصية طلال، وحديث دوتي عن القهوة وطريقة تقديمها، كذلك النقل الحرفي عند بلنت في كتابها عن موقع عقدة وسورها وعدم تقبل مر أفعيا المبلغ المقدم لهم. (بلنت، الليدي أن. ترجمة وتعليق: إيش، أحمد. 2005). رحلة إلى نجد مهد العاشرة العربية. دمشق: المدى، ص 259.

(3) هوجارث، ارتياد جزيرة العرب، ص 413-414.

(4) هوجارث، ارتياد جزيرة العرب، ص 414.

(5) رحلة بالجريف، 1/185-194.

(6) انظر: رحلة بالجريف، 2/39-36/210-214.

(7) رحلة بالجريف، 1/145.

(8) رحلة بالجريف، 1/144.

(9) رحلة بالجريف، 1/145.

(10) يسى قصر برزان. (رحلة بالجريف، 1/133).

(11) رحلة بالجريف، 1/133.

خاتمة الجلسة في أثناء الزيارة تناول الفاكهة في بيت المضيف كما أشار بالجريف لتلك الطريقة⁽¹³⁾.

ويحكم بالجريف أنه لم يعرف أمة قط، متخلفة في طهي الطعام مثل العرب، فكل ما يعرفوه: هو الأرز ولحم الضأن المسلوقة مكمومان مع بعضهما على صحن كبير مع قليل من الخبز والتمر وربما بيضة أو بيضتان مسلوقتان وقرع مهروس". وكان للرحالة بالجريف رأي حول أكل أهل المنطقة والعرب بشكل عام بأنهم أسوأ الشعوب في نوع الأكل بقوله: (ليس هناك من أمة تفتقر إلى مفهوم فن الطبخ أكثر من العرب)⁽¹⁴⁾.

حقيقة لا أعلم سر تهجم بالجريف هذا، والمسألة في النهاية أذواق وثقافة أكل، مع أن الوجبة التي ذكرها وجبة غنية خاصة في ذلك الوقت، ومن المحتمل أن بالجريف مل تكرارها وكرم أهلها، فلو رجعنا لبداية وصوله إلى حائل وأول وجبة تذوقها، لتأكدنا من ذلك، حيث يقول: (كانت الوجبة أفضل مما قد تذوقناه حتى الآن...)⁽¹⁵⁾.

4. مميزات الشخصية العربية

قام بالجريف في دراسة الشخصية العربية وبيّن مميزات الإيجابية وكذلك السلبية، فضلاً عن أنه بيّن أبرز المميزات لعرب الجزيرة وخصّ بها الحاضرة بالدرجة الأولى وأهم تلك المميزات من وجهة نظره هي:

- نبالة العرق: عدّ بالجريف العرق العربي من أنبل أعراق الأرض ووضح أن هذا واقع العرب المستقرين والذين تحكمهم حكومات منظمة، ولم يأت حكمه على نبالة العرق العربي من فراغ؛ بل جاء كما يذكر: نتيجة خبراته المتراكمة والتي اكتسبها خلال أسفاره التي قام بها وتعرف خلالها على كثير من الأجناس الإفريقية والآسيوية والأوروبية⁽¹⁶⁾.
- رقي الحوار: كما يتميز المجتمع بأسلوبه الراقي في الحوار والتعامل بين أفرادها، وعن ذلك يقول: (إذا ما استمعت إلى الحديث من حولك فإنه يندر أن تسمع سباباً أو لعناً أو شجاراً، ولكن كثيراً من العمل، والبراعة في الرد والضحك)⁽¹⁷⁾.
- ظاهرة التحرر: تحدث عن ظاهرة التحرر لعرب الجزيرة فالعرب حسب ذكره: يكونون للحرية الوطنية والحرية الشخصية محبة وتقدير، وفي الوقت نفسه يحترمون السلطة احتراماً كبيراً طالما إن القائمين عليها يمارسونها بأدب وحرص وعناية⁽¹⁸⁾. وأكد على أن ميزة التحرر تعد من أبرز مكونات مجتمع أهالي الجوف. كما أكد أنهم يحترمون السلطة احتراماً كبيراً طالما إن القائمين عليها يمارسونها بأدب وحرص وعناية⁽¹⁹⁾.
- المساواة الاجتماعية والتسامح: من خلال مشاهدات بالجريف لاحظ عدم وجود مسألة الطبقية في مجتمع عرب الجزيرة واتضح له هذه المساواة عند حديثه عن مجتمع جبل شمر بقوله: مجتمع جبل شمر بشكل عام ليس بينهم فروق اجتماعية، حيث يتميز المجتمع في جبل شمر بالترايط والمساواة بين أفراد المجتمع، وتجد الأعيان يختلطون بعامّة الناس مما أثار دهشته وإعجابها، وما زاد من دهشته عندما شاهد هؤلاء الأعيان يمشون متشابكي الأيدي والأذرع مع الحرفيين وحراس البوابات، وهذا البساطة والتواضع من قبل الأعيان أعطتهم مزيداً من الاحترام والتقدير من قبل المواطنين العاديين⁽²⁰⁾. ويؤكد بالجريف على أنّ عرب الجزيرة بالغالب لا يضمرون للنصارى أية حقد أو ضغينة لكونهم نصارى؛ بل يأتي الخطر عندما تنكشف شخصية الرحالة التي تخفى بها، ويعرف الناس أنه أوروبي أو عميل لهم، وهو ما يوازي الجاسوس. وهذا بحد ذاته كافٍ للقضاء على صاحبه، أو على أقلّ تقدير، إجباره على العودة من حيث أتى، فالنصارى الشرقي لن يلفت انتباه أحد، بشرط ألا يمارس طقوسه علانية⁽²¹⁾.
- الكرم والعتاء: لم تغب عن ملاحظة بالجريف مسألة الكرم وعن تميز العرب

البشرة السوداء والبيضاء لكن الأولى هي الأكثر انتشاراً. وبين أن المملوك يعامل معاملة جداً رائعة في الجزيرة العربية، وعنها يقول: (إن الرقيق الذين يعملون مع أثرياء القوم في المناطق الشمالية من الجزيرة العربية، تبدو عليهم السعادة والصحة والعافية، وأنهم أيسر عيشاً وأكثر رغداً من الكثيرين من الأحرار وتميزوا بهندامهم وملابسهم الزاهية)⁽¹⁾.

وحول سبب تميز لبس المماليك يفسر ذلك بقوله: (إن الزنجي يتأقن بحق إذا ما استطاع أن يدفع ثمن ذلك)⁽²⁾. وكان المماليك في جبل شمر يتمتعون بثقة الحاكم بقدر أكبر مما يتمتع به أقرباؤه، علماً بأن المماليك -المحاربين والشرطة والموظفين والعمال- قد تحولوا في الواقع إلى جزء من الطبقة الحاكمة، واعتمد حكام الجزيرة منذ البداية عليهم؛ لأنه عرف عنهم الإخلاص والوفاء لأسيادهم، حسب تفسير بالجريف⁽³⁾. ومن المماليك الذين تحدث عنهم: سعيد الرشيد، وأطلق عليه بالجريف لقب كبير ضباط الخيالة في حائل. وقد أثنى بالجريف على قدرات الحرس الخاص واهتمام قائد الحرس سعيد ببقايفته وقيافته جنوده وتدريبهم على المسير وتنظيم الصفوف⁽⁴⁾. وتكلم عن شخصية جوهر وابنه محبوب مملوكي الإمام فيصل بن تركي، وجوهر من أصل قوقازي، وأم محبوب جورجية واكتسب من أمه البشرة البيضاء ويقول عنه أنه وسيم وسامة تلفت النظر، وبشوش ومستقل فكرياً، ويعتمد عليه الإمام فيصل حتى أصبح كبير وزرائه رغم أنه في سن الشباب وقال عن محبوب أنه: (شاب ماهر ذكي، بلا أدنى شك، وهو جريء وجسور أيضاً، وتذوقه للأدب بصفة عامة وحبّه للبحث يدلان على أصله القوقازي)⁽⁵⁾. وأعجب بالجريف بمكتبة محبوب الخاصة وتنوعها، وعدها بالجريف أكبر مكتبة خاصة شاهدها في رحلته⁽⁶⁾.

وكان من المعجبين بشخصية المملوك فرحات حاكم القطيف ويقول عنه: (كان فرحات وهذا اسم الحاكم، ذائع الصيت بين أبناء جلدته، وكان عبداً زنجياً فارغ الطول يقدر عمره بحوالي خمسين عاماً). ويصف شخصية فرحات بقوله: (حسن الطبع، كثير الكلام، كريماً، كما أن ذكاه وفكره يزيد قليلاً على ذكاه وفكر الشخص العادي، وكان يرتدي ثياباً أنيقة...)⁽⁷⁾.

كما كان للأطفال نصيب في رحلة بالجريف، ويقف معجباً وشاهداً على إتقان الأطفال للغة العربية. خلاف ما هو موجود في البلاد العربية الأخرى التي تطغى عليها اللهجة المحلية، بقوله: (في كل من جبل شمر ونجد العليا والوسطى إذ نجد في هذه الأماكن أصغر الأطفال وأشعثهم الذي يتسكّع في الطرقات والشوارع يتكلم اللغة العربية الفصيحة، تلك التي كان ينطقها سيبويه)⁽⁸⁾. وقد سبق بالجريف في هذا الرأي المستشرق الفنلندي أوغست واين الذي تنبه للتربية السليمة للأطفال في جبل شمر والجوف⁽⁹⁾.

وأشار بالجريف وبشكل سريع عن أبرز القيم الاجتماعية التي لاحظها وقام بمناقشتها خلال تنقله في رحلته، حيث نجد في كتابه وقفات متفرقة يوضح للقارئ أبرز القيم والمعايير الاجتماعية لعرب الجزيرة، ومنها: الكرم - القهوة، الطعام.

ويعتبر بالجريف أكثر من فهم القهوة العربية كقيمة اجتماعية عند عرب الجزيرة، وفهم بروتوكولها وأسرارها وأدواتها، وطريقة إعدادها. وتكلم عنها بصفحات عديدة⁽¹⁰⁾. وقد أثنى بالجريف على القهوة العربية في بلاد الجزيرة العربية وتفوقها على القهوة التركية والغربية⁽¹¹⁾.

وعن وجبات الطعام عند العرب، بيّن وجود وجبتين في اليوم إحدهما عند الشروق والثانية عند الغروب. ويصف في كتابه عادات الأكل لدى العرب بدقة وتفصيل، مؤكداً على عادة الاستعجال في الأكل⁽¹²⁾. ومن العادات الجميلة المتبعة في جبل شمر وهي موجودة عند العوائل الغنية والتي تكون

ذلك، ففسر للقارئ بقوله: (بأنه دليل عملي يقدم للضيف يخلوها من السم) وعن طريقة تقديم القهوة للضيف: يقدم صاحب الضيافة للضيف ثلاثة فناجين، وفنجان واحد بعد الوجبة، وعن طريقة صب الفنجان لا يزيد عن النصف. (رحلة بالجريف، 76/1).

(12) رحلة بالجريف، 76/1.

(13) رحلة بالجريف، 173/1.

(14) رحلة بالجريف، 74/1.

(15) رحلة بالجريف، 140/1.

(16) رحلة بالجريف، 93/1.

(17) رحلة بالجريف، 199/1.

(18) رحلة بالجريف، 93/1.

(19) رحلة بالجريف، 90/1.

(20) رحلة بالجريف، 98/1.

(21) رحلة بالجريف، 97/1.

(1) رحلة بالجريف، 201/2.

(2) رحلة بالجريف، 198/1.

(3) رحلة بالجريف، 198/1.

(4) رحلة بالجريف، 169/1.

(5) رحلة بالجريف، 115/2.

(6) رحلة بالجريف، 118/2.

(7) رحلة بالجريف، 219/2.

(8) رحلة بالجريف، 357/1.

(9) فالين، جورج أوغست، (2009). رحلات فالين إلى جزيرة العرب. ط2، بيروت: دار الوراق، ص 159.

(10) تكلم بالجريف بصفحات عديدة عن القهوة ومكان القهوة بشكل دقيق، انظر رحلة بالجريف، 77-71 وعاد وتحدث عن القهوة وأدواتها وإعدادها في حائل 137-138.

(11) حول طريقة تقديم القهوة للضيف قال بالجريف: لا بد أن يتم تجديد القهوة وعمل قهوة جديدة للضيف ويعد تجهيزها يقوم صاحب الضيافة بشرب الفنجان الأول وهو من الأشياء المتعارف عليها. ولم يغب عنه معرفة السروراء

سكان القصيم يتفوقون على سكان جبل شمر وبقية سكان نجد بمواهبهم التجارية والصناعية؛ كما أن أهل القصيم فهم الكثير من مرح أهالي جبل شمر، والكثير من عناد قاطني نجد العليا وتعضهم القبلي، ويزيد سكان القصيم على هذه الخصائص، مكر وقلق جيرانهم أهل الحجاز، وشيئاً من أنانية أهل مكة والمدينة المفرطة، الذين يتفقون معهم اتفاقاً طفيفاً من حيث المظهر الخارجي⁽¹⁷⁾.

وناقش بالجريف الفكر الاقتصادي لدى تجار عرب الجزيرة وقدراتهم التجارية والاستعداد للقيام برحلات طويلة والاعتراب للكسب والتجارة، ولكن أهل القصيم وأهل الأحساء يراهم أمهر تجار عرب الجزيرة، حيث يملكون عقلية تجارية وقدر كبير من الأحاسيس العملية ومحبون للمشاركة التجارية جعلتهم يتميزون عن غيرهم وأنهم لا يأفنون الصناعة.

وكان بالجريف يعتقد حسب ما هو سائد في أوروبا، أن أواسط الجزيرة العربية يقطنها البدو الرحل، ولكنه تفاجأ عندما وجد أن السكان المستقرين في أراضيهم ومدنهم وزراعتهم وحكوماتهم يمثلون كل شيء، وأن البدو لا يمثلون فيها شيئاً يذكر، فهم لا يشكلون أكثر من السُدس أو السُبع من سگان وسط الجزيرة العربية⁽¹⁸⁾.

وهنا علينا أن نؤكد على إمكانية صحة ما قاله في الإحصائية عن الجوف وجبل شمر؛ لأنه زار منطقة نجد في موسم الصيف وفيه ينتقل أغلب سكان البادية في منطقة جبل شمر للاستقرار في أملاكهم ونخيلهم في فصل الصيف، أو ينتقلوا شمالاً إلى بادية العراق. وفي الجوف وشمال الجزيرة العربية تنتقل أغلب البادية إلى بادية العراق والشام في ذلك الفصل. لكن هذه النسبة تتغير في بقية مواسم العام! فهل يجبل بالجريف أثر المواسم المناخية في البت بمثل هذه الأحكام؟ والغريب أن رحلة أوغست فالين أحد مراجعه، الذي تطرق في رحلته إلى هذه المسألة بقوله أنه في فصل الصيف يتجه البدو في منطقة جبل شمر جميعاً إلى الأراضي المزروعة، فشمروا إلى أراضيهم والأخرون نحو الفرات ودجلة، وفي هذه الأونة يصادف القليل من البدو⁽¹⁹⁾.

كما إن تلك الإحصائية لا تنطبق على وسط وشرق الجزيرة العربية، فأعداد البادية تقريبا متساوية أو تزيد على سكان الحواضر هناك.

وبين بالجريف القبائل الأكثر قوة وتنظيم وثناء في نجد وشرقي الجزيرة العربية فيرى أنها قبائل: شمر، وعتيبة، ومطير، والعجمان، وبنو خالد⁽²⁰⁾.

وأثنى على قبيلة شمر والتي تنسب تسمية منطقة جبل شمر إلى هذه القبيلة، وعند استضافة جماعة من بدو شمر في صحراء النفود قال: (وتلك إشارة إلى أننا بدأنا نقرب من الحضارة)⁽²¹⁾، كما أثنى كثيرا على قبائل بنو هاجر وبنو خالد والعجمان قبائل بادية الأحساء⁽²²⁾. وقد ربط بالجريف ثنائته على تلك القبائل لأنهم أقرب القبائل لسكان الحضر⁽²³⁾.

وفي مجال فن التناسق المعماري يرى تفوق أهل عمان والأحساء ثم يأتي بعدهم وسط وجنوب نجد فشمال الجزيرة العربية⁽²⁴⁾. وفي أثناء تواجد بالجريف في حائل عداها مدينة عصرية وحديثة التطور في عمارتها مقارنة بحواضر الجزيرة العربية بقوله: (كانها قطعة من النقود جرى سكها حديثاً، تتلأل بكل نقاتها وبريقها، بين كومة عملات متكررة من العملات المعدنية المشوهة...)⁽²⁵⁾. وقد رسم خريطة توضح مدينة حائل في فترة رحلته، تعد المصدر الأول لمعالم المدينة في تلك المرحلة⁽²⁶⁾.

ومن المعلومات التي تفرد بها بالجريف حديثه عن سكان على الساحل الشرقي للخليج العربي والذي أسماه بالجريف بخليج فارس. وقد أكد

بالكرم، والعطاء والتعاون بين أفراد المجتمع⁽¹⁾، وعن ذلك يقول: (حقاً إن العرب -على وجه العموم- جيدون في إدارة المساومة للحصول على أفضل الصفقات، وكرماء في العطاء، فهم يقضون نصف يوم في المساومة على بنس واحد، بينما يهبون ما قيمته عدة جنيهات لأول سائل)⁽²⁾. وذكر أنه لما استقر بالجوف لم يطبخ نتيجة الدعوات المستمرة من قبل أهالي الجوف الكرماء⁽³⁾، وفي حائل ركز كثيراً على قيمة الكرم التي تميز بها ذلك المجتمع، وعنها يقول: (.حتى المريض نفسه تحدث في صوت خفيض مصحوب بالإشارات مشيراً إلى رغبته في أن لا بد أولاً وقبل كل شيء أن أشارت كرم ضياقتهم)⁽⁴⁾. ويستشرف بالجريف مستقبل هذه القيمة الاجتماعية: (وأشك فيما إذا كانت الأمور ستجري مساراً آخر في هذه البلدان، حتى لو كان ذلك الشخص يحتضر)⁽⁵⁾. واعتبر بالجريف قصر برزان⁽⁶⁾ في حائل رمز الكرم الحائفي في القرن التاسع عشر⁽⁷⁾.

• **عدم استغلال المناصب والنزاهة:** كما بين أنه لا يوجد هناك استبداد أو استغلال للمناصب، فالموظف لا يفكر في الحصول على شيء من السوق قبل أن يدفع ثمنه، ولا يستغل الموظفين الذين يعملون معه دون أجر ويفسر بالجريف سبب تصرف هذا الموظف: بأنه يعود للفكر الراجي المستقل الذي ينطبع به العربي الحقيقي⁽⁸⁾. وقد أيد وجود هذه الظاهرة الإيجابية عند من الرحلة الذين زاروا مناطق وسط نجد مثل: كارلو غورماني⁽⁹⁾، والليدي أن بلانت⁽¹⁰⁾. كما لاحظ بالجريف ظاهرة إيجابية وهي تميز المجتمع بالنزاهة، وعدم وجود أي نوع من أنواع الرشوة في وسط الجزيرة العربية فيقول بالجريف عن الموظفين في إمارة آل رشيد: (ولا نرى هنا أي أثر لنظام الأغوات، أو الباشوات، الذي يتسم به النظام التركي الاستبدادي)⁽¹¹⁾.

5. الاختلاف والتمايز بين المجتمعات التي زارها

من الملاحظات التي لفتت نظر بالجريف الاختلاف والتمايز بين المجتمعات التي زارها. مثل الجوف وجبل شمر والقصيم والعارض والأحساء وعمان فلكل مجتمع شخصية خاصة به، تزيد أو تقل عن بقية المجتمعات تلك.

وقام بالجريف بعمل مقارنات بين مجتمعات عرب الجزيرة من حيث المميزات ووجوه الاختلاف بينهم: ففي اللغة العربية يرى تفوق أهالي نجد (جبل شمر، القصيم، العارض) في سلامة اللغة عن أهالي الأحساء ويعزو بالجريف ما سماه: (انحطاط لغة الأحساء) إلى كونهم منطقة ساحلية وكثرة اتصالهم بالأجانب، مما أتلّف قدرتهم النحوية مقارنة بأهل نجد وجبل شمر⁽¹²⁾. كما قال عن جبل شمر أنه احتفظت اللغة الدارجة -اللّهجة- فيه بأفصح وأنقى أشكالها المغربية من وجهة نظره⁽¹³⁾.

وأكد أن أهل الجوف بعيدون تماماً عن استعراض الكياسة والذوق الرفيع السائد عند جبل شمر ووسط نجد أو حتى الأحساء أو عمان. وكذلك النظافة الشخصية والمهارة الزراعية وقدرتهم على الإقناع وبعابتهم شكل من أشكال الوطنية المحلية من حيث قدرتهم على التعامل مع الغرباء وتسيير أمور التجارة، بل حتى الرغبة في التثقيف والتقدم الذي يراودهم من حين لآخر⁽¹⁴⁾.

كما أعطى أهل الأحساء التفوق من الناحية الفكرية، على غيرهم من سكان وسط الجزيرة، وعزا ذلك التفوق لاتصال أهل الأحساء بالأجانب بحكم أنهم منطقة ساحلية⁽¹⁵⁾.

واعتبر أهالي الجوف بشكل عام وسط ما بين البدو وبين سكان المناطق الزراعية لكنهم يشبهون بقية سكان الحضر والقرى إلى حد كبير⁽¹⁶⁾.

وعقد مقارنةً بين أهل جبل شمر وبين أهل القصيم من ناحية الخصائص البدئية، فاعتبر قامة سكان جبل شمر تفوق قامة سكان القصيم - لكن

(13) رحلة بالجريف، 43/1.
(14) رحلة بالجريف، 89/1.
(15) رحلة بالجريف، 190/2.
(16) رحلة بالجريف، 88/1.
(17) رحلة بالجريف، 300/1.
(18) رحلة بالجريف، 56/1.
(19) فالين، رحلات فالين، ص 172: عطا الله. قافلة البحر، ص 206.
(20) رحلة بالجريف، 51/1.
(21) رحلة بالجريف، 126/1 و135.
(22) رحلة بالجريف، 213/2.
(23) رحلة بالجريف، 135/1 و213/2.
(24) رحلة بالجريف، 125/1.
(25) رحلة بالجريف، 128/1.
(26) رحلة بالجريف، 536/1.

(1) رحلة بالجريف، 90/1.
(2) رحلة بالجريف، 91/1.
(3) رحلة بالجريف، 95/1.
(4) رحلة بالجريف، 201/1.
(5) رحلة بالجريف، 201/1.
(6) قصر برزان: قصر حكم إمارة آل رشيد في حائل، وتم اكتمال بناؤه في عهد الأمير طلال بن عبد الله آل رشيد. (للمزيد انظر: الشمر، خليف، 2014). جبل شمر في عهد طلال العبدالله الرشيد: دراسة سياسية حضارية. بريدة: جامعة القصيم، ص 70.
(7) رحلة بالجريف، 169/1.
(8) رحلة بالجريف، 198/1.
(9) غورماني، كارلو كلاوديو. ترجمة: إبيش، أحمد. (2009). نجد الشمالي: رحلة من القدس إلى عنيزة في القصيم عام 1864 م. أبو ظبي: دار الكتب الوطنية، ص 83.
(10) بلنت، رحلة إلى نجد عهد العشائر العربية، ص 308.
(11) رحلة بالجريف، 198/1.
(12) رحلة بالجريف، 190/2.

يعمل لنفسه وبنفسه، في حين يعمل الفرد الإنجليزي من أجل المجتمع، وبمساندة كاملة وتأييد من هذا المجتمع⁽¹⁴⁾.

وأشار بالجريف إشارة سريعة للحكومات المؤثرة في الشرق وهي: الحكم السعودي الذي أسماه بالوهابي والحكم العثماني الذي أسماه بالتركي والحكم الفارسي. ويرى أن المقارنة بين الحكومات الثلاث وبدون أدنى شك في صالح الحكم السعودي، من منظور إن هذه الحكومة إذا كانت قاسية على رعاياها فإنها لا تسمح لأحد غيرها بأن يفعل ذلك، فهذه أفضل من أن تتخلى عنه لكل من تسول له نفسه. وأن الحكم النجدي السعودي أعدل من العثماني⁽¹⁵⁾. كما أن الحكم السعودي عرف بالعدل وعدم الظلم وقضى على الفوضى في أواسط نجد والحروب بين القوى المحلية وبين القبائل البدوية، فأسهمت بقبضتها القوية على نشر الأمن والسلام، فلا يجرق أحد أن يتعدى على حقوق أي أحد من المواطنين. وأصبحت عملية السفر والتنقل للأفراد والجماعات داخل البلاد السعودية تتم بحرية وأمان، كما أدى إلى ازدهار التجارة والزراعة. وهذا ما تفتقده البلدان الواقعة تحت الحكم العثماني والفارسي⁽¹⁶⁾.

6. المآخذ على تلك الصورة

هناك مؤشرات على عدم دقة بالجريف في بعض القضايا والمسائل التي تناولها في كتابه، حيث تعد مأخذ وعيوب على تلك الصورة النمطية التي رسمها. فهناك بعض الفجوات في استعراضه لبعض القضايا والأحداث وانقطاع في السياق العام لها، وتجاهل لأحداث مهمة عاصرها. وربما كانت كتابات بالجريف غير منتظمة لا سيما مع كثرة تنقلاته وأسفاره، وربما كتب عن بعض الجوانب، ولم يتسن له إكمالها. فيذكر قبلي أن والده أخبره: إن بالجريف كان يكتب كتاب رحلته بعد عودته من الجزيرة العربية في الدير بلبنان⁽¹⁷⁾. وبالجريف نفسه اعترف أنه يتوقف أحياناً عن كتابة مشاهداته لعدة أيام، خاصة بعد تجاوزه مرحلة القصيم؛ نتيجة الإهمال والملل من التدوين، أو من باب الحذر. ثم يكتب معتمداً على ذاكرته، فلا غرابة إذ اعتذر عن ذكر اسم موقع ما يتحدث عنه؛ نتيجة تسيانه الاسم⁽¹⁸⁾. واعتماده كذلك على ما يسمعه دون أن يتأكد بنفسه من صحة المعلومة من عدمها. ومن الأمثلة على ذلك في هذا الصدد، قوله: أنه لو تمكن من صعود أعالي قمم سلسلة جبال شمر المحيطة بمدينة جبة يمكن رؤية سلسلة من بسايتين النخيل في قرية تيماء⁽¹⁹⁾. ووصف بالجريف بلدة الخرج والأفلاج في وادي الدواسر⁽²⁰⁾. ومن المواقع التي جانبه الصواب فيها تحديده موقع قبر كريم العرب حاتم الطائي، فقد حدد موقعه في ديار جبال سلسي في منطقة جبل شمر⁽²¹⁾.

وهنا سوف نوضح أهم تلك المآخذ وهي:

- **الغناء إسهام العرب في مجال الطب:** من المآخذ على بالجريف الغناء إسهام العرب في مجال الطب ففي حديثه عن الطب بين بالجريف عدم وجود أي دور أو أي إسهام للعرب القدامى في مجال الطب، فهم برأيه مجرد نقل لما كتبه اليونانيون والإغريق؛ وأن من يمارس مهنة الطب في الجزيرة العربية هم فئة الصلب⁽²²⁾. والتي يؤكد على أن أصولهم أوروبية⁽²³⁾. وإن حكمه هذا أتى معتمداً على الحضارة الإسلامية في دمشق وبغداد وقرطبة، وهي أحكام لا تصدر إلا من جاهل⁽²⁴⁾.
- الإحصاءات والأرقام:** من المآخذ الصريحة على بالجريف هي الإحصاءات والأرقام التي قدمها عن عدد سكان الجزيرة العربية التي مر بها، وعن عدد

بالجريف على استقرار القبائل العربية على ساحلها الشرقي وقد أسماه بر فارس⁽¹⁾. فاعتبر الجهة الشرقية والغربية من الساحل يستوطن أغلبها قبائل من أصول عربية، لكنه يرى أن سكان جهة بر فارس، يمثلون جنس مولد ما بين العرق العربي والفارسي من حيث الشكل والسمات⁽²⁾. ووضح أن رؤساء بر فارس يزعمون أنهم ينحدرون مباشرة من قبيلة مطير، ومن هؤلاء الرؤساء اثنان أو ثلاثة يزعمون أنهم ينتمون إلى قبيلة بني خالد⁽³⁾. ويرى أن مجتمع الساحل الغربي من الخليج أكثر تقدماً اقتصادياً، وأكثر ترابطاً اجتماعياً، واستقراراً سياسياً، فبر فارس يعاني مشاكل نتيجة الهجمات الفارسية المتكررة، والنزاعات الداخلية، والصراع الديني المتزمت⁽⁴⁾. لكن بحارة عرب بر فارس يتفوقون في حرفة البحر والمرور البحري⁽⁵⁾.

وقد كانوا يشعرون بانتماءاتهم وولاءاتهم العربية، فأكد على ترحيب رؤساء بر فارس بالدولة السعودية الأولى، واعتبروا القوة السعودية هي المنقذ لهم من دولة الفرس. وسوف تساعدهم في الوقوف بوجه المد الشيعي كما يقول، فطبقوا كل ما تدعوا له دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية في الساحل الشرقي للخليج⁽⁶⁾.

وصنف بالجريف عرب الجزيرة بأنهم هم العرب الخالص! حيث سعى في عدد من المحاولات في تعريف العرب الخالص: فقد أكد على أن تعريف العربي الحقيقي يُقصر على سكان الجزيرة العربية، وحدهم، فقط ولا يصح أن يدخل فيهم من هم خارجها؛ كمصر والشمال الإفريقي، فهؤلاء هم: النبط⁽⁷⁾.

إن تصنيف بالجريف هذا! هل كان يعتمد على دلائل وبراهين؟ أم مجرد تهويمات بنى عليها نتائجه وكافح من أجل فرضها! وهنا لا نود ملاحظة المكر الخبيث في فكر بالجريف وابتكاراته لأساليب التفريق للأمة العربية والإسلامية، فبالجريف -قبل غيره- يعلم أن النبط ما هم إلا من العرب⁽⁸⁾.

وفي رحلته تناول الشخصية العربية ويقصد بها عرب الجزيرة فينبأ أبرز صفاتها ومنها: الصبر والجلد والتحمل، والمثابرة، والإصرار، والشجاعة في الحرب، والنشاط والحيوية في السلم، ويتميز أفراد المجتمع بالفطنة والنباهة، وعن ذلك يقول: (إن العرب برغم كونهم عرقاً سريع التصديق إلا أن الكثير مما يقبله الناس عن طيب خاطر، في كل من مكة وبغداد، لا يجيزه الناس هنا)⁽⁹⁾.

وخلال دراسته لمجتمع عرب الجزيرة أكد على مسألة تفوق العرق العربي على كل من يتصلون به من جيرانهم الآسيويين والأفارقة، والذين بدورهم يعترفون بدورهم بتفوق العرق العربي⁽¹⁰⁾.

وأكد بالجريف على تفوق جميع الشعوب الشرقية على العرب في مجال الغناء، وفي الموسيقى وأن مقولة: (الجزيرة العربية أرض الغناء) فهذا من الوهم بحسب تعبيره. ويؤكد أن الصوت العربي لا يصلح البتة للغناء، وأن أسوأ فن موسيقي سمعه كان فن الربابة⁽¹¹⁾. لكنه أكد على تفوق العربي في فن الخطابة وفي تلاوة القرآن⁽¹²⁾.

ويُسوق لنا بالجريف مقارنة بسيطة بين الشخصية العربية والإنجليزية، فذكر أن العرب هم إنجليز الشرق، وكلهما شعب صاحب عقيدة أكثر من أنهما شعب متدين⁽¹³⁾، ويرى أن الإنجليزي يمتاز على العربي بأنه أكثر تأملاً، وأما في مجال العمل، فيستنتج بعد تحري إنتاجية عمل يوم واحد لفرد عربي وفرد إنجليزي سيكون منجزهما متساو، ولكن الفرق بينهما أن الفرد العربي

(1) رحلة بالجريف، 2/286.

(2) رحلة بالجريف، 2/286.

(3) ذكر بالجريف أن هؤلاء الرؤساء لديهم الأوراق التي تؤكد ذلك. (رحلة بالجريف، 2/286). لعله يقصد أن لديهم ورقة مكتوب فيها شجرة النسب الخاصة بكل عائلة ينتمي لها هؤلاء الرؤساء.

(4) رحلة بالجريف، 2/286.

(5) رحلة بالجريف، 2/287.

(6) رحلة بالجريف، 2/285.

(7) رحلة بالجريف، 2/186.

(8) النبط: يطلق عليهم الأنباط وهم قبائل بدوية عربية هاجروا من الجزيرة العربية إلى جهات بلاد الشام وأسسوا مملكة الأنباط في الأردن وأجزاء من شمال شبه الجزيرة العربية. كانت عاصمتهم مدينة البتراء في الأردن، وانتهت مملكة الأنباط على يد الرومان. (المطور، عزام أبو الحمام، 2009). الأنباط: تاريخ وحضارة. عمان: دار أسامة، ص 14-23.

(9) رحلة بالجريف، 1/216.

(10) رحلة بالجريف، 1/93.

(11) رحلة بالجريف، 1/356.

(12) رحلة بالجريف، 1/358-357.

(13) رحلة بالجريف، 1/92-91.

(14) رحلة بالجريف، 1/197.

(15) رحلة بالجريف، 1/366.

(16) رحلة بالجريف، 1/365-366.

(17) قبلي، قلب الجزيرة العربية، 2/181.

(18) رحلة بالجريف، 2/268.

(19) هذه المقولة من المبالغات التي لا تعترف لبالجريف، فبلدة تيماء تبعد عن جبة بحدود 250 كم. (البادي، الرخالة الأوبيون في شمال ووسط الجزيرة العربية: منطقة حائل، 1/106).

(20) رحلة بالجريف، 94/2: قبلي، قلب الجزيرة العربية، 157-147.

(21) رحلة بالجريف، 1/264. هذا الرأي مخالف لموقع ديار حاتم الطائي الواقع في جبل أجا في منطقة حائل.

(22) الصلب: هم شريحة من شرائح مجتمع عرب الجزيرة، عرفوا بتنقلهم بين البوادي، وتميزوا في حرفة الصيد، ومعرفة طبيعة المواقع والأماكن. وعرفوا بممارسة مهنة الطبابة، وقد اهتم أغلب الرحالة والمستشرقين بالصلب وتناولوها في معرض كتاباتهم. (جيبور، جبرائيل سليمان، 1988). البدو والبادية: صور من حياة البدوي في بادية الشام. بيروت: دار العلم للملايين، ص 333-340.

(23) رحلة بالجريف، 1/210.

(24) رأي بالجريف هذا دلالة على أنه ينكر إسهامات أرباب هذا الفن ورواده من أمثال: ابن سينا وابن الهيثم وأبو القاسم الزهراوي القرطبي صاحب كتاب الجراحة، وغيرهم من الأطباء العرب والمسلمين الذين أسهموا في تطور هذا العلم.

وعن تفسير بالجريف للكرم البدوي فمن الواضح حكمه كان منبثق من خلال مرجعيته الثقافية الغربية بعدم تقديره لقيمة ما يمتلك.

وأما بالنسبة لوزن قبائل البادية في المعارك فيكفي أن نعود للإحصائية العسكرية من كتابه فقد ذكر أن ثلاثة أرباع الجيش من البادية والربع الأخير من الحاضرة! هنا نسأل: لماذا يدعى البدو للمشاركة بالحروب؟ هل من أجل أن يشاركوا الحاكم في الغنائم؟ وهل الحاكم جمع هذا العدد من البدو في المواجهات العسكرية بهدف تشجيع الربع الباقي من القوة المشاركة؟ هذا دلالة على أن حكمه جاء بلا تدبر أو استيعاب لما ذكره في إحصاءاته رغم المبالغة فيها.

أما قوله إن البدوي لا يعرف وطن أو دين يدافع عنه، أو لا يعرف الشرف! فقولاه لا ينطبق على البدوي واقعاً، بل على بالجريف نفسه الذي جاء للجزيرة العربية لخدمة فرنسا عدوة وطنه، وبالجريف هو من تخلى عن دينه عملياً، كما أنه من الواضح للقارئ بأن بالجريف لا يعرف معنى الشرف الحقيقي! فلو كان يعرفه ما كان حكمه هكذا.

ويتضح لنا أن منطلق بالجريف المطلق لا يخلو من كراهية عميقة للمبادئ السامية التي تسود في البادية العربية من كرم وسماحة وعدم ميل طبيعي إلى سفك الدماء في حروب البدو نجاهه يفسرها على غير وجهها، يدل على همجية لا تتناسب وأي هدف إنساني يمكن أن يسعى إليه رجل متحضر كما يراه عبدالعزيز الغني⁽¹⁴⁾. ويقول حلبي عبدالمنعم في تعليقه على ما ذكره بالجريف عن البدو: ومن الواضح أن هدف بالجريف بحديثه عن البدو هو تأكيد نتيجة حكمه عن البدو بأنهم بلا عقيدة ولا دين وهذا خطأ تاريخي وديني⁽¹⁵⁾.

على العموم صورة البدوي كما صورها بالجريف هي الصورة نفسها عند عدد من المستشرقين الذين زاروا الجزيرة العربية ومنهم: الدنماركي راونكير، وكذلك دوتي. لكنها جاءت مناقضة عند عدد من المستشرقين الذين زاروا الجزيرة العربية مثل: نيبور، وبوركهارت، وفالين، وغورماني، وهيس، وموزيل، ولورانس، وأوبنهايم.

على العموم كان حكم بالجريف فيما يتعلق بالبادية فيه تجنّب واضح ومغاير لواقع الحال. وما يدل على جهل بالجريف في قانون الصحراء، ويوحى لأي باحث محقق أن هناك حكماً مبيتاً لصورة متخيلة من السابق، وعلينا أن نأخذ بالمعلومة ونترك تفسيره وفهمه المركزي للأشياء.

ويختصم الباحث الرد على حكم بالجريف على البدو، باقتباس من قول بالجريف نفسه في تعليقه على ما ذكره من وصف وأحكام للبدو حيث يقول: (الإنسان الذي يتعامل مع شعب لا يعرفه يكون شأنه شأن من يقرأ في كتاب مكتوب بلغة غير معروفة له، الأمر الذي يؤدي إلى ظهور الأفكار الخاطئة وارتكاب الأفعال الخاطئة في بعض الأحيان)⁽¹⁶⁾.

الفكر الديني لدى عرب الجزيرة: ينعكس موقف بالجريف من الإسلام على رؤيته للأمور، فنراه يدعي على الإسلام وبعض بلدات الجزيرة العربية بدعوى وأحكام لا أساس لها من الصحة فيعد استعراض طويل في قراءة لمجريات الأحداث الدينية حسب وجهة نظر بالجريف نجاهه يخلص إلى صورة مشوشة، بل سوداوية ولا تتوافق مع الحقيقة، فمن وقت لآخر هناك قدح ودم في الإسلام كعقيدة ونسق حياة، وكثير ما صرح بالجريف بأن الإسلام هو المسؤول عن الجمود في الحياة العربية. وسنحاول أن نوضح نماذج مختلفة كأمثلة على ذلك التشويه:

● **العرب أمه غير متدينة:** يرى بالجريف أن العرب أمة صاحبة عقيدة أكثر منها أمة متدينة. وانطلق من أنها مشكلة فكر في الدرجة الأولى، وأن العربي إذا ما تركناه لنفسه لا يستطيع أن يتبين الأسباب التي لا تجعل كل الأديان

القوات العسكرية التابعة للدولة السعودية الثانية، والقوات العسكرية التابعة لإمارة آل رشيد. وذكر أن مصادره التي نقل عنها تلك الإحصاءات والجداول هي سجلات إمارة آل رشيد وسجلات الدولة السعودية الثانية والتي بنا عليها تعدادها وجداوله⁽¹⁾. لكن الجداول التي قدمها فيها مبالغة كبيرة جداً بالأرقام ومخالفة وبعيدة عن الواقع، وعن الإحصاءات التي جاءت في المصادر ومنها كتابات المستشرقين الذين زاروا الجزيرة العربية من بعده⁽²⁾. وعلى الرغم من المبالغة الكبيرة في الإحصاءات التي قدمها بالجريف إلا أننا نجد من ينقل عن بالجريف من الرحالة تلك الأرقام دون الإشارة لذلك⁽³⁾.

● **صورة البدوي:** اعتبر بالجريف البدو أنهم: مخلوقات اللحظة فحسب، الأمس والغد عندهم لا يساويان شيئاً. ليس لهم مبدأ وطني أو ديني. وأما عن تفسيره قيمة الكرم عند البدوي كسلوك فيعتبر سخاءه أغلبه نتيجة: طيبش صبياني همجي، وعدم تقدير للملكية وقيمتهما⁽⁴⁾. ويرى أن البدوي: (سلاب ونهاب ومسرف في أن واحد)⁽⁵⁾. كما يرى أن زعماء قبائل البادية لا يهتمون برجال قبائلهم إلا بقدر ما يجنونه منهم من منافع مباشرة أو ضرر مائل وفي تقديره من الناحية العسكرية، أن البدو لا وزن لهم في المعارك الحربية الخطيرة بسبب افتقارهم إلى الأسلحة والتجهيزات وإلى النظام العسكري. وأنه يجب عدم الثقة بولايتهم. ويعتبر البدو عدو الحكومات الأبدية⁽⁶⁾. كما كانت نظريته نظرة ازدراء على بعض قبائل البدو وخاصة بدو الشراشات وفيها استعلاء وتحقير وتجنّي ومهاجمهم بمناسبة ودون مناسبة في صفحات كتابه، فهو يرى أنهم فضوليون ويفتقدون للباقة في الكلام والتعامل⁽⁷⁾.

وشكك بالجريف في الصورة التي رسمها الرحالة من قبله عن طهارة نية البدوي وعفته والتي يراها أنها لا تتفق في جميع الأحوال مع الوقائع الحقيقية التي قد يمتنانها المرء، فيضرب مثل بواقعة بخيانة قبائل البدو بقافلة للهود كان يحرسونها، ولكنهم بعد أن تعمقوا في الصحراء ضلّوهم وتركوهم يواجها مصير الموت من العطش فعادوا واستولوا على القافلة⁽⁸⁾. وشبه بالجريف سلوك البدوي وسلوك الجمل بأنه واحد فكلاهما حقود، وبحبان الانتقام⁽⁹⁾. ويجزم بالجريف أن البدوي لا يقاتل دفاعاً عن وطن أو دين أو شرف! لأنه بلا وطن، ولا دين للبدو؛ بل لا يعرفون الشرف⁽¹⁰⁾.

ويعد أن زاد في قسوته قال إنهم لا يحيون القتل: (وأصافاً لأولئك البدو، فهم ليسوا جنساً دموياً، ويتحاشون القتل بما يناسب للصوصية التي اعتادوا عليها. ومعارك البدو ومناعاتهم كثيرة، ولكنها لا تزهر الأرواح؛ لأن الهدف الرئيسي من الإغارة هو الغنائم)⁽¹¹⁾.

لقد تحامل بالجريف كثيراً في آرائه ضد أغلب فئات البدو! ونسب إليهم النقص المتمثلة بالجهل والأنايئة والفوضى⁽¹²⁾، وهو ما يخالف به كثيراً ممّا كتبه مستشرقون آخرون ونجاهه حانقاً وسلبياً في معظم أحكامه ولم يكن كما عرفناه وعرف هو هدفه من هذه الرحلة: دراسة العقل العربي.

ومن الواضح أنه لم يفهم معنى أن الحرية في ثقافة البدو كانت من مقتضيات العزة والمجد، فالحرية عندهم مقترنة بالتمرد؛ بل هي التمرد نفسه، تصوّر البدوي الحرية تمرداً على كل من عاداه، فلم يخضع نفسه إلا لتقاليد القبيلة المشتقة من حياته، ولم يكن له مفهوم للدولة، أو النظام، أو المواطنة، أو الشعب والحدود.

أما قضية تقديم مصلحة الشيخ على حساب أفراد القبيلة، هنا يتضح للمطلع بأن بالجريف لم يكن ملماً بنظام المشيخة عند البدو وطبيعة العلاقة بين الشيخ وأفراد قبيلته، والقائمة على المشورة وعدم الاستبداد بالرأي فمن المعروف أن لكل عشيرة أو قبيلة شيخ يسوسها ويدبر أمورها، وتناد له عشيرته انقياداً كاملاً، ما دام يرعى مصالح العشيرة ويحرص عليها. ومصلحة العشيرة واحدة، تندمج فيها مصلحة الفرد في مصلحة الجماعة، وتتحقق من خلالها⁽¹³⁾.

(10) رحلة بالجريف، 54/1.
(11) رحلة بالجريف، 53/1.
(12) رحلة بالجريف، 53/1.
(13) عن الشيخ البدوي وصلاحياته وعلاقته بأفراد القبيلة. انظر: أوبنهايم، ماكس فون، بروفيلش، أرض وكاسل، فرنز. (2007). البدو، ط2، بيروت: دارالوراق، 50/1.
(14) إبراهيم، روايات غربية، 107/2.
(15) رحلة بالجريف، هامش 54/1.
(16) رحلة بالجريف، هامش 58/1.

(1) رحلة بالجريف، 101-97/2.
(2) الشمري، جبل شمري في عهد طلال العبدالله الرشيد دراسة سياسية حضارية، ص 688.
(3) الشمري، جبل شمري في عهد طلال العبدالله الرشيد، ص 688.
(4) رحلة بالجريف، 57/1.
(5) رحلة بالجريف، 57/1.
(6) رحلة بالجريف، 50/1.
(7) رحلة بالجريف، 111/1.
(8) رحلة بالجريف، 53/1.
(9) واصل بالجريف هجومه غير المبرر على البدوي لمهاجمة الجمل الذي اعتبره حيوان همجي حقود متوشغ غي.
(10) رحلة بالجريف، 61-60/1.

ويدعي أن أهل الأحساء يكتنون كراهية للإسلام وتعاليمه⁽¹⁵⁾.

وحول تلك الصورة عن فكرة الدين عند العرب بداية بتأكيده على عدم إسهام العرب في نشر الإسلام، فهذا غير صحيح واتهام له مقاصده -كما ذكرنا- فالعرب هم تيجان الإسلام وأول من نشره خارج الجزيرة العربية، واستمر دور العرب بنشر الإسلام والدفاع عنه وخدمته إلى يومنا هذا. وبالنهاية الإسلام مسؤوليته ليست على عاتق العرب فجميع الشعوب الإسلامية أسهمت وستسهم في نشره وخدمته والدفاع عنه.

وتأكيده على مصطلح العقيدة المحمدية⁽¹⁶⁾، وهنا كأنه يعد محمداً -صلى الله عليه وسلم- مصلحاً اجتماعياً أو مفكراً سياسياً أو زعيماً عربياً له أنصار ومريدون. كذلك نجد جهل بالجريف بعدم التفريق بين الدعوة إلى تأدية الصلاة والإجبار على تأدية الصلاة.

وربما كان بالجريف قد فهم أن الدين عند العرب أقرب إلى أن يكون مجرد عادات وتقاليد وطقوس شكلية فحسب، وأي كانت المفردات التي استخدمها حتى وإن بدت الترجمات العربية لنصوبه غير دقيقة، فإن العين لا تخطئ مفرداته في وصف الإسلام مثل: "الجمود"، "التعصب"، "الكبت"، "التخلف"، وهي وإن تباينت في المعاني حملت في نهاية المطاف صورة سلبية تجاه الإسلام والمسلمين العرب ولعل السبب في ذلك التصور يكمن فيما يلي:

- أولاً: لم تكن النظرة العدائية للإسلام قاصرة على بالجريف وحده فلفترة طويلة اعتبر الإسلام رجة مأساوية دائمة لأوروبا خاصة إبان التوسع العثماني، ورغم امتصاص الحضارة الأوربية لهذا التهديد مع مرور الوقت⁽¹⁷⁾، فقد ظلت قضية التعامل معه أمراً مؤرقاً في المستقبل، وأفق تلك العلاقة حصر سلباً بين حدين متناقضين هما العداوة أو الصداقة ولا ثالث لهما، ففي عبارة موحية وكاشفة ذكر الرحالة والمستعرب المعروف ولفرد ساكون بلنت أن الإسلام أو على حد تعبيره "المحمدية"⁽¹⁸⁾ وهذا التعريف استخدمه بالجريف مراراً، ليست رأياً أو منظمة وإنما هي حقيقة جغرافية وسياسية، وأكثر من ذلك فهي قوة ليست محايدة وإنما قد تكون صديقة أو معادية، وما لم نلور موقفاً من الإسلام خلال العشر سنوات المقبلة فسينظر إلينا على أننا معادين للمسلمين⁽¹⁹⁾.
- ثانياً: رغم الصلات والعلاقات المتباينة بين الشرق والغرب، إلا أن الصورة النمطية للعرب والشرق بوجه عام ظلت أسيرة الخيال في الأغلب الأعم، وعادة ما يذكر في هذا السياق الأثر الهائل التي تركته الأدب العربية بوجه عام على الغرب، ولعل المثل البارز في هذا الشأن ترجمة: "الف ليلة وليلة" حيث صارت من أقرب وأشهر الوسائل لتكوين خلفية عن الشرق وأهله، وصارت قراءتها طقساً شائعاً لكل من يتجه صوب الشرق⁽²⁰⁾.
- ثالثاً: ساع الكثيرون من نخبة العصر الفيكتوري أن الإسلام بمكوناته الذاتية غير قابل من الأساس للإصلاح والتغيير؛ بل إنه في رأيهم عاجز عن توجيه الحياة الإنسانية لأصحابه بصفة عامة، ويكفي أن نتذكر في هذا الصدد المقولة الشائعة لكرومر Cromer في أحد تقاريره الرسمية بأن: (الإسلام إن لم يكن ميتاً فهو في طور الاحتضار)⁽²¹⁾. وبطريقة غريبة أشار بالجريف إلى أن تخلف العرب في مجال الطب والطبابة سرعان ما خبت بسبب جمود الحضارة الإسلامية⁽²²⁾. والواقع أنه لو قال بالجريف سبب جمود المسلمين أو العرب لتم تقبل وصفه، لكنه قال بحكمه على أنه الإسلام الذي كان على عكس ما ذكر. فأحكامه على الإسلام بشكل عام انطوت على ظلم وإجحاف كبيرين يعكس الإنصاف الذي سجله المستشرق الألماني ماكس مايرهوف Max Meyerhof 1874-1945م الذي أبرز الدور الحضاري للتراث العلمي للعرب والمسلمين⁽²³⁾. ومن المثير للانتباه أن بالجريف قد ربط تأخر العرب

والعقائد الأخرى سليمة وأنها بصورة سليمة وذي قيمة متساوية. في حين أن العربي لا يفهم في الوقت نفسه السبب الجوهري الذي يجعله يتبع ديناً من هذه الأديان أو العقائد دون الأديان والعقائد الأخرى. وبذلك يجد نفسه يصل إلى نتيجة مريحة تجعله لا يرتبط بأي دين أو عقيدة من هذه العقائد. ويربط ما سبق بقوله: ليس معنى ذلك أن العربي يراوده أدنى شك في الرسالة المقدسة أو الرسائل التي نزلت على الأنبياء؛ بل لأنه لا يرغب الدخول في مناقشات تسمي لحقوق الأديان الأخرى⁽¹⁾.

ويحكم على ابتعاد العرب عن واجباتهم الدينية بقوله: (إن العربي يميل إلى البساطة والراحة ولا يصبر على الكبت، فالصلوات المفروضة تضايقه، والإطالة في الصلاة تبعه، والوضوء يزججه، والصيام في وجود شاه سميعة يصبح في عداد المستحيل...)⁽²⁾. ثم يقوم بتصنيف الشعوب الإسلامية المتدينة، فيصنف الأتراك على إنهم شعب متدين لكن حسب تصنيفه المغول أكثر تدين على المستوى القومي والفردية. ويحتج على من يصنف الأمة العربية: أمة متدينة⁽³⁾. وعن فتاعة يصدر حكماً قاطعاً بأن انتشار الإسلام كان بفضل جهود الفرس والترك والمغول. ولو أن الدين الإسلامي عهد بحمايته إلى العرب وحدهم لقل انتشاره⁽⁴⁾. ويختتم تصوره للفكر العربي بأنهم شعب توفيري، ولكي يسهل ويبسط هذه المسألة للقارئ الغربي أضاف: أن الشعب التوفيري ليس بالضرورة أن يكون شعباً متديناً، ولم تثبت أهمية الدين كسبب مباشر من أسباب العمل إلا مع الشعب الإنجليزي رغم أن المواطن الإيطالي والإسباني وكذلك اليوناني كل منهم يعد بشكل وآخر أكثر تديناً من البريطاني⁽⁵⁾. ووصل بعد جهد لاستنتاجه بقوله: العقل العربي يشبه العقل الإنجليزي في هذا الأمر وفي أمور أخرى كثيرة فلذا وبدون تردد يعد العرب هم إنجليز الشرق⁽⁶⁾.

• الطعن بالإسلام: تتناثر كلمات بالجريف بشكل صريح أو مموه حول الطعن بالإسلام وبرسوله وبالقرآن الكريم، في مواضع متعددة من الكتاب فقد اعتبر التعدد في الزواج بالدين الإسلامي بالذيلة العنينة⁽⁷⁾. وربط فشل العرب بمجال الطب باتباعهم الدين الإسلامي، إلى درجة القول: (إنَّ الدَّواءَ المحمدي الذي يصيب بالشَّلَّ الذي لا يقتله، هو الذي أحرَّ العرب في السِّيَاقِ الذِّهني والمعرفي، وجعل غيرهم يسبقونهم لأنهم استفادوا من الظُّروفِ المواتية، وربَّما لم يستفيدوا من فطرتهم الطبيعيَّة)⁽⁸⁾.

وربط تراجع الحضارة العربية لارتباطها بالإسلام، حيث يقول: (وعندما يختفي القرآن ومكَّة من الجزيرة العربيَّة، عندئذٍ فقط، يمكن أن نتوقَّع للعرب بحق أن تراهم، وهم يتبوؤون المكان اللائق بهم بين صفوف الحضارة التي حرّمهم محمد وكتابه -أكثر من أي سبب فردي آخر- عن اللحاق بها)⁽⁹⁾.

وتتملَّك بالجريف فكرة مشوّشة عن تدين سكان الجزيرة العربية، حيث أكد على أن أهل الجوف شأنهم شأن معظم إخوانهم كانوا قد تخلو في زمن ما عن دين الإسلام⁽¹⁰⁾، لكن الدولة السعودية ألزمت أهل الجوف بقوة السيف اتباع الإسلام السليم في أصبح صورته التي لا يرقى إليها شك، ولكن ذلك لم يتفق وأهوائهم ولم يلق لديهم سوى نجاح محدود جدّاً⁽¹¹⁾.

ويذكر عن رفاقه في الرحلة الذين رافقوه من معان إلى الجوف، بأنهم عندما تجلَّت تباشير الصُّباح ومع ظهور أشعَّة الشَّمس قال: (بدأ رفاقنا البدو الذين ولّوا وجوههم صوب قرص الشمس المشرق، دون وضوء أو النزول عن ظهور جمالهم، يتبادلون صيغ وإهتالات محددة، ولم يتوقفوا عن ذلك، إلا بعد أن بدا قرص الشمس واضحاً عند حافة الصحراء)⁽¹²⁾. ويربط ذلك بما كان عليه أسلافهم في الجاهلية، وأن الرسالة المحمدية لم تترك أثراً على البدو بحسب قوله سوى: (انطباع قليل جدّاً عن الصواب أو الخطأ)⁽¹³⁾.

وفي موضع آخر يقول في أهالي الأحساء: (بالرغم من أن الإسلام واضح على السطح والمظاهر الخارجية لأهل الأحساء، إلا أنه ليس في أعماقهم)⁽¹⁴⁾.

(1) رحلة بالجريف، 91/1.

(2) رحلة بالجريف، 91/1.

(3) رحلة بالجريف، 92/1.

(4) رحلة بالجريف، 92/1.

(5) رحلة بالجريف، 92/1.

(6) رحلة بالجريف، 92/1.

(7) رحلة بالجريف، 271/2.

(8) رحلة بالجريف، 211/1.

(9) رحلة بالجريف، 211/1.

(10) يقول إن أهل الجوف دخلوا في نوع من الفتشية والسبئية والصلاة للشمس ونحر الذبائح على قبور الموتى.

(11) رحلة بالجريف، 90/1.

(12) رحلة بالجريف، 90/1.

(13) رحلة بالجريف، 25/1.

(14) رحلة بالجريف، 25/1.

(14) رحلة بالجريف، 165/2.

(15) رحلة بالجريف، 165/2.

(16) في مناسبات عديدة عند حديثه عن الإسلام يسميه عقيدة محمد. انظر: رحلة بالجريف، 11/1، 287/2.

(17) إدوارد، سعيد، ترجمة: ابوديب، كمال، (2005). الاستشراق، المعرفة، السلطة، ط3، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ص 89.

(18) إدوارد، الاستشراق، ص 90-94.

(19) Blunt, W.S. (1882). *The Future of Islam*. London: Kegan Paul, p.203.

(20) Hachicho, M.A. (1964). *English Travel Books about the Arab near East in the Eighteenth Century*. Die Welt Des Islams, 9(1/4), 1-206. <https://doi.org/10.2307/1570430>, pp.136-137.

(21) Cromer, C. (1908). *Modern Egypt*. London: Macmillan and Co., Limited, p.134.

(22) رحلة بالجريف، 181/1.

(23) Meyerhof, M. (1930). *The "Book of Treasure", an Early Arabic Treatise on Medicine*. Isis The History of Science Society, 14(1), 55-76. <http://www.jstor.org/stable/224380>.

ليقرأها عرب الجزيرة، بل قصد بها المجتمع الأوربي عموماً، فضلاً عن الباحثين التاريخيين والسياسيين الذين يسعون إلى التعرف على المنطقة في زمن الرحلة، فمن الطبيعي أن يكون قد اجتهد في التزام الصدق، لأنه مؤمن -في قرارة نفسه- بأنه يؤدي خدمة جليلة لنفسه ووطنه، وعلينا في المقابل أن نأخذ هذه الأعمال بجديّة، سواء رضينا عنها أو لم نرض.

كما أن الصورة التي رسمها بالجريف عن عرب الجزيرة كانت جيدة وواضحة في بعض ملامحها، ومقنعة وصادقة في زوايا عديدة لتلك الصورة، ومشوهة وصادمة كلما اقتربنا وتمعنا أكثر فأكثر في الصورة المرسومة. وليس هناك داعٍ لأن تسبب لنا هذه التعليقات صدمة، وأن نقضي وقتنا في الدفاع عن أنفسنا؛ بل نحاول أن نرى صورتنا بعيون الآخرين، لعلنا نفهم أنفسنا، أو نفهم الآخرين. ويجب أن ننزع في الاعتبار أن بالجريف كان متأثراً بتقاليد العصر الفيكتوري والاعتماد على الذات وروح الحماسة والمغامرة وهو لم يأت بذهن خال وكان مدرّكاً لأعمال سابقة خاصة نيبور وبوركهايت ولستد وفالين فهو في النهاية سار على دربهم متفقاً حيناً، وتارة مختلفاً.

تلك الصورة لم يتخل بالجريف عن الانطلاق من فكرة المركزية الأوربية وتفوق الحضارة الغربية على غيرها، وفي النهاية تبقى، رغم ذلك، ملاحظات بالجريف حول الجزيرة العربية في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي من المصادر المهمة.

نبذة عن المؤلف

خليف صغير حماد الشمري

قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة حائل، حائل، المملكة العربية السعودية،
00966555167097.khalafag@gmail.com

د. الشمري دكتوراه (جامعة حائل)، سعودي، أستاذ مشارك في التاريخ الحديث والمعاصر في قسم العلوم الاجتماعية، له اهتمامات في التاريخ الإسلامي، والتاريخ العربي، والوثائق، والاستشراق، والاستغراب، ودراسة العملات، والمخطوطات الشعرية. له عدد من الأفلام الوثائقية والمشاركات العلمية والعملية في المؤتمرات المحلية والعربية والدولية. وله مؤلفات وأبحاث مختلفة منها: المستودع والمستحضر، جبل شمر في الرحلات الشرقية، صورة الملك عبدالعزيز لدى خليل الرواف، جماعات دون الاعتراف، الدور الحربي للمرأة البدوية في الجزيرة، القهوة السعودية. أوركيد: 0000-0002-9283-1818

المراجع

- إبراهيم، عبدالعزيز عبدالغني. (2013). *روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية*. بيروت: دار الساق.
- أبو عليه، عبدالفتاح حسن. (1999). *تاريخ الدولة السعودية الثانية 1256-1309هـ/1840-1891م*. الطبعة السادسة. الرياض: دار المريخ.
- إدوارد، سعيد. ترجمة: أبو ديب، كمال. (2005). *الاستشراق، المعرفة، السلطة*. الطبعة الثالثة. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.
- أل زلفة، محمد بن عبدالله. (2014). *حائل في كتاب الرحالة ويليام بالجريف عام 1279-1862م*. الطبعة الثانية. الرياض: دار بلاد العرب.
- أوبنهايم، ماكس فون، برونيلش، أرش وكاسكل، فرنز. (2007). *البدو*. الطبعة الثانية. بيروت: دار الوراق.
- بالجريف، وليم جيفورد. ترجمة: حسن، صبري محمد. (2012). *وسط الجزيرة العربية وشرقها*. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- بدول، روبن. ترجمة: نصيف، عبدالله آدم. (1989). *الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية*. الرياض: مطابع جامعة الملك سعود.
- برودي، بنجامين. قدم له وحرره: آل زلفة، محمد عبدالله. (2012). *بالجريف ونقاده: أصول الجدل ومضامينه*. الرياض: دار بلاد العرب.
- بلنت، الليدي أن. ترجمة وتعليق: إيبش، أحمد. (2005). *رحلة إلى نجد مهد العاشرة العربية*. دمشق: المدى.
- بيرين، جاكلين. ترجمة: قلعي، قدري. (د.ت). *اكتشاف جزيرة العرب خمسة قرون من المغامرة والعلم*. بيروت: دار الكتاب العربي.
- تيلور، باياردز. ترجمة: جزائري، رنا. تحرير وتعليق: إيبش، أحمد. (2012). *الترحال في*

والمسلمين فيما أسماه بجمود الإسلام، ولم يوضح أي جمود يقصد؟ لاسيما، وأن الإسلام من أكثر الديانات السماوية حثاً على طلب العلم والمعرفة وإعلاء مكانة العلماء واعتزافاً بفضلهم، وليس معروفاً الأسباب التي دعت بالجريف لتبني هذا الزعم والافتراءات، وأن كان مثيراً للانتباه أن ما ذكره بالجريف هو نفس ما سبق وإن أبداه الطبيب والمستشرق الأمريكي المعروف: كورنيلوس فان ديك 1818-1895 Cornelius Van Dyck، الذي استقر في بيروت منذ عام 1836 واستمرت خدمته بها لمدة ستين عاماً، وربما تأثر بالجريف بما كتبه ديك إبان وجوده في بيروت في عام 1860⁽¹⁾. ويجب التنويه بأن التهجيم على الإسلام كان دأباً لبعض ومنهم بالجريف الذي ذهب في موضع آخر إلى مدى أكبر في زعمه وبدا أكثر حنقاً على الإسلام حين ربط بغرابة فجة وغير مبررة بين: (إمكانية تقدم العرب في العلوم المادية والتطبيقية من جهة وشريطة زوال الإسلام واختفاء مكة⁽²⁾ من جهة أخرى⁽³⁾).

• **رابعاً:** يبدو أن بالجريف كان موحى لغيره من الرحالة ومنهم المستشرق المجري أرمينيوس فامبيري Arminius Vambéry (1832-1913) الذي أوفدته الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية للقيام برحلة لآسيا الوسطى وقد عبر فامبيري عن تقديره وإعجابيه الشديدين لبعض الرحالة السابقين مثل ريتشارد برتون خاصة ترجمته لكتاب ألف ليلة وليلة⁽³⁾، وكان من أشد المرحبين بحرارة بالسياسة البريطانية في الهند ووصفها بأنها مهمة حضارية. كما رفض في الوقت نفسه استقلال إمارات وخانات آسيا الوسطى، أو حتى إعلان تبعيتها الاسمية للدولة العثمانية⁽⁴⁾.

7. الخاتمة

مهما قيل عن رحلة بالجريف فستظل علامة بارزة في أدب الرحلات المتعلقة بالجزيرة العربية. ففيها آراء صائبة، وفيه ملحوظات ذكية تتعلق بالمجتمع والسياسة والإدارة، وفيه نقد لكثير من المظاهر السائدة في جزيرة العرب في القرن التاسع عشر. وفيها تفرد بأحداث كان لها الأسبقية في الإشارة والحديث عنها ومن تلك: وصف الحياة اليومية للمجتمعات التي زارها: (الجوف، حائل، عنيزة، الرياض، الأحساء، القطيف، البحرين، قطر، عمان، عرب الساحل الشرقي) فسار على نهجه أغلب من جاء بعده من الرحالة مستخدمين الأسلوب نفسه في التركيز على دراسة الإنسان والمجتمع في الجزيرة العربية.

أتى بالجريف على الشخصية العربية فبين أبرز السمات والصفات الإيجابية لها والحالة الفكرية والسياسية والدينية لعرب الجزيرة، ومقارنتهم مع الأمم المجاورة كالفرس والترک وبعض الشعوب الآسيوية والأفريقية والأوربية. ومع هذا فيعيبه أمور كثيرة يأتي على رأسها: عداوته وكرهه الشديديان اتباع الدعوة السلفية والبدو.

وفي الختام علينا طرح تساؤلين:

- **ما مدى وضوح تلك الصورة؟** كان للصورة التي حاولنا توضيحها بشكل مختصر فيها آراء صائبة، وفيه ملحوظات ذكية تتعلق بالمجتمع والاقتصاد، والسياسة، والإدارة. وفيه نقد لكثير من المظاهر السائدة في جزيرة العرب في القرن التاسع عشر فقد انتقد بالجريف سلبيات مجتمع الجزيرة وتلك الانتقادات بعضها واقع حقيقي ونقد إيجابي. لكن هناك مؤشرات على عدم دقة بالجريف في انتقاده لبعض القضايا والمسائل حيث تناولها في كتابه وانتقدها بشكل سلب، لكنها تعد في حقيقة الأمر مأخذ وعيوب على تلك الصورة النمطية التي رسمها.
- **هل أفلح بالجريف في عرضه عن عرب الجزيرة؟** في تصور الباحث نعم نجح بالجريف في عرضه فمهما قيل عنه، فسيظل علامة بارزة في كتب الاستشراق المتعلقة بالجزيرة العربية. ففيه آراء صائبة، وفيه ملحوظات ذكية تتعلق بالمجتمع والسياسة والإدارة، وفيه نقد لبعض المظاهر السائدة في جزيرة العرب في القرن التاسع عشر.

ولكن نعلم بأنه لا يخلو أي عمل من أخطاء سواء أكانت تلك الأخطاء سهواً أم عمداً. ومن المؤكد -بل من الطبيعي- أن بالجريف لم يدون هذه الرحلة

(3) Ian, pp.256-257.

(4) Mandler, D. (2016). *Arminius Vambéry and the British Empire: Between East and West Hardcover*. Lanham, Maryland: Lexington Books, p.93.

(1) Ian, B.R. (2002). *The medicalization of sovereignty: Medicine, public health, and political authority in Syria, 1861-1936*. Stanford University: ProQuest Dissertations Publishing, pp.36-37. (2) كان ذلك أيضاً هو موقف الرحالة دوتي التي كان حريصاً في داخله على كبرياء العصر الفيكتوري وأهم بغلظة وجفاء منذ اللحظة الأولى للعرب والمسلمين بالتعصب. (شأن، راشد). (2007). *الطريق إلى الجزيرة العربية*. بيروت: الدار العربية للموسوعات، ص 188 و 236.

- “*ard Wa-Dirasa*” ‘Al-Qassim in the Journey of William Palgrave (1279AH/1862AD) “Exposition and Study”. Riyadh: Al-Jamiyah Al-Tarikhiyah Al-Saudiyah. [in Arabic]
- Al-Zahiri, A.A. (1994). *Masa'il Min Tarikh Al-Jazirah Al-Arabiyah* ‘Questions from the History of the Arabian Island’. 4th edition. Riyadh: Muassasat Dar Al-Ashlah. [in Arabic]
- Al-Zulfah, M.A. (2014). *Ha'il Fi Kitab Al-Rahhalah William Palgrave 1279-1862M* ‘Hail in the Book of the Traveler William Palgrave in 1279-1862 AD’. 2nd edition. Riyadh: Dar Bilad Al-Arab. [in Arabic]
- Ataallah, S. (1998). *Qafilat Al-Hibr Al-Rahhalah Al-Gharbiyun Ila Al-Jazirah Al-Arabiyah (1762-1950)* ‘Ink Caravan Western Travelers to Arabian Island (1762-1950)’. 2nd edition. Beirut: Dar Al-Saqi. [in Arabic]
- Awbnhaym, M., W'rs'h, B. and Caskel, W. (2007). *Al-Badw* ‘Bedouins’. 2nd edition. Beirut: Dar Al-Warraq. [in Arabic]
- Barudi, B. (2012). *Palgrave Wnoqadoh: Usul Al-Jadal Wa Maqamynoh* ‘Palgrave and its critics: The origins of the controversy and its contents’. Riyadh: Dar Bilad Al-Arab. [in Arabic]
- Biduwal R. (1989). *Alrrahalh Al-Gharbiyun Fi Al-Jazirah Al-Arabiyah* ‘Western Travelers in Arabian Island’. Riyadh: King Saud Univeristy Press. [in Arabic]
- Birayn, J. (n/a). *Iktishaf Jazirat Al-Arab Khamsat Qurun Min Al-Mughamarah Wal-ilm* ‘Discover Arabian Island Five Centuries of Adventure and Science’. Beirut: Dar Al-Kitab Al-Arabi. [in Arabic]
- Blunt, A.A. (2005). *Rihlat Ila Najd Mahd Al-asha'ir Al-Arabiyah* ‘A Trip to Najd the Cradle of the Arab Clans’. Dimashq: Al-Mada. [in Arabic]
- Blunt, W.S. (1880). A Visit to Jebel Shammar (Nejd). New Routes through Northern and Central Arabia. In: *Proceedings of the Royal Geographical Society and Monthly Record of Geography*, 2(2), 81–102. DOI: 10.2307/1800398
- Blunt, W.S. (1882). *The Future of Islam*. London: Kegan Paul.
- Cromer, C. (1908). *Modern Egypt*. London: Macmillan and Co., Limited.
- Didier, C. (2007). *Rihlat Ilaa Rihab Alsharif Alakbar Sharif Makah Almukaramah Fi Alnisf Althaani Min Alqarn Altaasie Ashar Almiladii 1854M* ‘A Trip to Rehab Al-Sharif Al-Akbar, Sharif of Makkah Al-Mukarramah in the Second Half of the Nineteenth Century 1854AD’. 2nd edition. Beirut: Aldaar Al-Arabiah.
- Falyn, J.U. (2009). *Rihlat Falyn Ila Jazirat Al-Arab* ‘The Falyn Trips to Arabian Island’. 2nd edition. Beirut: Dar Al-Warraq. [in Arabic]
- Filbi, H.S. (2002). *Ayyam Arabiyah* ‘An Arab Days’. Riyadh: Maktabat Al-Ubaykan. [in Arabic]
- Filbi, H.S. (2009). *Qalb Al-Jazirah Al-Arabiyah Sijill Al-Asfar Walestksahf* ‘The Center of Arabia A Record of Travels and Exploration’. 2nd edition. Cairo: Al-Markaz Al-Qawmi lil-Tarjamah. [in Arabic]
- Ghwrmany, C.K. (2009). *Najd Eshshamalee: Rihlat Min Al-Quds Ila Unayzah Fi Al-Qasim Aam 1864M* ‘A Trip from Jerusalem to Unayzah in Al-Qassim in 1864 AD’. Abu Dhabi: Dar al-Kutub Al-Wataniyah. [in Arabic]
- Hachicho, M.A. (1964). English Travel Books about the Arab near East in the Eighteenth Century. *Die Welt Des Islams*, 9(1/4), 1–206. DOI: 10.2307/1570430
- Hogarth, D.G. (2009). *Airtiad Jazirat Alearab Sirat Kshuf Rahaalat Algharb Wamughamaratihim Fi 'Ard Aljazirati* ‘Going to the Arabian Island, A Biography of Western Travelers’ Discoveries and their Adventures in the Land of the Island’. Abu Dhabi: Abu Dhabi Authority for Culture and Heritage. [in Arabic]
- Ian, B.R. (2002). *The medicalization of sovereignty: Medicine, public health, and political authority in Syria, 1861–1936*. Stanford University: ProQuest Dissertations Publishing.
- Ibrahim, A.A. (2013). *Riwayat Gharbiah an Rihlat Fi Shihb Al-Jazirah Al-Arabiyah* ‘Western Narratives on Travels in the Arabian Peninsula’. Beirut: Dar Al-Saqi. [in Arabic]
- Idward S. (2005). *Al-Istishraq, Al-Ma'rifah, Al-Sultah* ‘Orientalism, Knowledge, Power’. 3rd edition. Beirut: Mu'assasat Al-Abhath Al-Arabia. [in Arabic]
- Jabbur J.S. (1988). *Al-Badw Wal-Badiyah: Suwar Min Hayat Al-Badw Fi Badiyat Al-Sham* ‘Bedouins and the Badia: Pictures from the Life of the Bedouins in the Badia of Al-Sham’. Beirut: Dar Al-Ilm lil-Malayin. [in Arabic]
- Jawdah, W. and Al-Himiyari T. (2018). Falsafat al-fikr al-dini li-jamiyat al-yasuyiin (Aljwzyt) 1534–1556m ‘Philosophy of religious thought of the society of the Jesuits (Jesuits) 1534–1556AD’. In: *The Third Scientific Conference of the College of Arts, and the First Annual Conference of the Department of Philosophy (By Philosophy and Human Sciences We Raise Religious Awareness)*, College of Arts, University of Baghdad, 26/04/2018, 559–74. DOI: 10.31973/aj.v1i1Special.is.525 [in Arabic]
- وسط الجزيرة العربية. أبو ظبي: دار الكتب الوطنية.
- جبور، جبرائيل سليمان. (1988). *البدو والبادية: صور من حياة البدو في بادية الشام*. بيروت: دار العلم للملايين.
- جودة، وائل جبار، والحميري، طالب سلطان حمزة. (2018). فلسفة الفكر الديني لجمعية السوسيين (الجزويت) 1534–1556م. في: *المؤتمر العلمي الثالث لكلية الآداب، والمؤتمر السنوي الأول لقسم الفلسفة (بالفلسفة والعلوم الإنسانية) نرتقي بالوعي الديني*، 74–559، كلية الآداب، جامعة بغداد، 26/04/2018. <https://doi.org/10.31973/aj.v1i1Special.is.525>
- الخالدي، دايبل بن علي. (2014). *الأحساء في رحلة وليام بالجريف (1862-1863م/1279-1280هـ)*. القاهرة: حوليات المؤرخ المصري، جامعة القاهرة.
- ديديه، شارل. ترجمة: البقاعي، محمد خير. (2007). *رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر شريف مكة المكرمة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي 1854م*. الطبعة الثانية. بيروت: الدار العربية.
- السنيدي، صالح بن محمد. (2009). *القصيم في رحلة وليم بالجريف (1279هـ/1862م) عرض ودراسة*. الرياض: الجمعية التاريخية السعودية.
- شاز، راشد. (2007). *الطريق إلى الجزيرة العربية*. بيروت: الدار العربية للموسوعات.
- الشمري، خليف. (2014). *جيل شمري في عهد طلال العبدالله الرشيد: دراسة سياسية حضارية*. بريدة: جامعة القصيم.
- الشمري، خليف. (2016). *طلال بن عبدالله آل رشيد 1238-1283هـ/1867-1862م قراءة سوسيو-تاريخية*. بيروت: جداول.
- الظاهري، أبو عبدالرحمن بن عقيل. (1994). *مسائل من تاريخ الجزيرة العربية*. الطبعة الرابعة. الرياض: مؤسسة دار الأضالة.
- العسكر، عبدالله. (2002). *رحلة بالجريف معربة. جريدة الرياض، بدون رقم مجلد (12385)*، بدون أرقام صفحات.
- العسكر، عبدالله. (2002). *رحلة بالجريف معربة. جريدة الرياض، بدون رقم مجلد (12399)*، بدون أرقام صفحات.
- عطا الله، سمير. (1998). *قافلة الحبر الرحالة الغربيون إلى الجزيرة العربية (1762-1950)*. الطبعة الثانية. بيروت: دار الساقى.
- العوامي، عدنان السيد. (2011). *ترجمة رحلة بلجريف: ترجمة تحتاج إلى ترجمة. مجلة الواحة الإلكترونية، 16 (53)*. بدون أرقام صفحات. <http://www.alwahamag.com>
- غورماني، كارلو كلاوديو. ترجمة: إيش، أحمد. (2009). *نجد الشمالي: رحلة من القدس إلى عنيزة في القصيم عام 1864م*. أبو ظبي: دار الكتب الوطنية.
- فالين، جورج أوغست. (2009). *رحلات فالين إلى جزيرة العرب*. الطبعة الثانية. بيروت: دار الوراق.
- فيلي، هاري سانت جون. ترجمة: أحمد، عباس سيد. (2002). *أيام عربية*. الرياض: مكتبة العبيكان.
- فيلي، هاري سينت. ترجمة: حسن، صبري محمد. مراجعة: عباس، رؤوف. (2009). *قلب الجزيرة العربية سجل الأسفار والاستكشاف*. الطبعة الثانية. القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- كشك، محمد جلال. (1984). *السعوديون والحل الإسلامي: مصدر الشرعية للنظام السعودي*. الطبعة الرابعة. القاهرة: المطبعة الفنية.
- المطور، عزام أبو الحمام. (2009). *الأنياب: تاريخ وحضارة*. عمان: دار أسامة.
- هورجرث، دافيد جورج. ترجمة: إيش، أحمد. (2009). *ارتداد جزيرة العرب سيرة كشوف رحالة الغرب ومغامراتهم في أرض الجزيرة*. أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث.
- وزارة الشؤون الخارجية. (1862). *سند نمرة 596*. إيران: أرشيف وزارة الشؤون الخارجية الإيرانية.
- Abu Alayhi, A.H. (1999). *Tarikh Al-Dawlah Al-Saudia Al-Thaniyah 1256-1309AH/1840-1891AD* ‘History of the Second Saudi State 1256-1309AH/1840-1891AD’. 6th edition. Riyadh: Dar Al-Mirrikh. [in Arabic]
- Al-Askar, A. (2002). *Rihlat Palgrave muearaba* ‘Palgrave journey by localization’. *Al-Riyadh Newspaper*, n/a(12385), n/a. [in Arabic]
- Al-Askar, A. (2002). *Rihlat Palgrave muearaba* ‘Palgrave journey by localization’. *Al-Riyadh Newspaper*, n/a(12399), n/a. [in Arabic]
- Al-‘Awwami, A.A. (2011). *Tarjamat rihlat Palgrave: Tarjamat thtjat ila tarjamat* ‘Translation of Belgrave’s journey: A translation that needs translation’. *Majallat Al-Wahah Al-Iktruniyah*, 16(60), n/a. <http://www.alwahamag.com> [in Arabic]
- Al-Khalidi, D.A. (2014). *Al-Ahsa in the Journey of William Palgrave (1862-1863AD/1279-1280AH)*. Cairo: Hawliyat Al-Muaarikh Al-Miṣri, Cairo University. [in Arabic]
- Al-Muṭawwar, A.A. (2009). *Al-Anba: Tarikh Wa-Hadarah* ‘The Nabataeans: History and Civilization’. Amman: Dar Usamah. [in Arabic]
- Al-Shammari, K. (2014). *Jabal Shammar Fi Ahd Talal Al-Abdallh Al-Rashid: Dirasah Siyasiyah* ‘The Shammar Mountain in the Era of Talal Al-Abdullah Al-Rasheed: A Political and Civilized Study’. Buraydah: Al-Qasim University. [in Arabic]
- Al-Shammari, K. (2016). *Talal Ibn Allah Al Rashid 1238-1283H/1822-1867M Qiraah Susiyu-Tarikhiyah* ‘Talal Bin Abdullah Al Rashid 1238-1283AH/1822-1867AD Socio-historical Reading’. Beirut: Jadawil. [in Arabic]
- Al-Sunaydi, S.M. (2009). *Al-Qasim Fi Rihlat William Palgrave (1279h/1862m)*

- Kishk, M.J. (1984). *Al-Saudiyyun Wa Al-Hall Al-Islami: Maşdar Al-Shariyah Lil-Nizam Al-Saudi* 'The Saudis and the Islamic Solution: The Source of Legitimacy for the Saudi Constitution'. 4th edition. Cairo: Al-Maṭbaah Al-Fanniyah. [in Arabic]
- Mandler, D. (2016). *Arminius Vambéry and the British Empire: Between East and West Hardcover*. Lanham, Maryland: Lexington Books.
- Meyerhof, M. (1930). The "Book of Treasure", an Early Arabic Treatise on Medicine. *Isis the History of Science Society*, 14(1), 55–76. <http://www.jstor.org/stable/224380>
- Ministry of Foreign Affairs. (1862). *Sanad Nemrah 596* 'Instrument Number 596'. Archive of the Iranian Ministry of Foreign Affairs, Tehran. [in Arabic]
- Palgrave, W.G. (1864). Observations made in central, eastern, and southern Arabia during a journey through that country in 1862 and 1863. *The Journal of the Royal Geographical Society of London*, 34(n/a), 111–54. DOI: 10.2307/1798469
- Palgrave, W.G. (2012). *Wasat Al-Jazirah Al-'Arabiyah Wa Shraqha* 'Central and Eastern Arabian Island'. Cairo: Al-Majlis Al-Ala Li-Thaqafah. [in Arabic]
- Shaz, R. (2007). *Al-Tariq Ila Al-Jazirah Al-Arabiyah* 'The road to Arabian Island', Beirut: Al-Dar Al-'Arabiyah Lil-Mawsuat. [in Arabic]
- Taylwr, B. (2012). *Al-Tirhal Fi Wasat Al-Jazirah Al-'Arabiyah* 'Traveling in the Middle of the Arabian Island'. Abu Dhabi: Dar Al-Kutub Al-Waṭaniyah. [in Arabic]